— ٣ —

بورتشارد راهب دير جبل صهيون

استهلال:

كان بورتشارد راهب دير جبل صهيون ألمانيا، إما من أهالي مدينة ستراسبورغ أو مدينة مجديبورغ، وقد عاش في القرن الثالث عشر، وصار راهباً من رهبان طائفة الدومينيكان وذهب إلى الشرق في سنة ١٢٣٢م، وقد زار مصر، وسورية، وماعرف باسم أرمينيا، التي كانت تعرف قديماً باسم مملكة كليكيا، ويقال بأنه أمضى عشر سنوات في دير جبل صهيون في القدس، ولم يعد إلى أوربا حتى تقدمت به السن كثيراً، هذا وتاريخ وفاته غير معروف.

ومن لهجة كتابته، يمكن أن ننظر إلى العصر الذي عاش فيه على أنه عصر تسامح، وقادت صحة أوصافه في كثير من الأحيان م.دي.أنفيل Annville ، للاعتماد عليه كدليل، وقدأعلن ج.س.م لورانت — الذي اعتمدت على طبعته في هذه الترجمة — أنه أعظم الحجاج في جميع العصور الوسطى وأشهرهم، ومع هذا يلاحظ أن شهرته التي دفعت إلى تحقيق كتابه أكثر من عشرين مرة، أن ما من طبعة من الطبعات المتقدمة أعطتنا نصاً كاملاً، وأنه لم يكن هناك وفاق حول اسمه الذي ورد بأشكال متنوعة منها:بوركاردوسBorcardus ، وبروكاردوس Brocardus ، وبرغادوسBerghadus . وذهب لورانت إلى القول بأن بورتشارد نفسه قد أخرج الكتاب مرتين، ففي المرة الأولى قدمه كنشرة خاصة أخذت شكل رسالة مرفقة بخريطة، وقاد نجاح هذه النشرة إلى إخراج نسخة مصححة نشرت على شكل كتاب، وظهر منذ ذلك الحين تعارض عظيم في النص، وذلك عندما نقارن طبعة منه بأخرى، فعلى سبيل المثال نقل العقيد كوندر الكلمات التالية من ص١٢ من هذه السلسلة حول مدينة القدس:

"Relictis Tamen Prioris concavitatis Vestigiis"

مظهـراً أن وادي[السيل] تيروبوان Tyropoeon لم يكن مليئاً مثلما هو الآن، ولم ترد هذه الكلمات في نص لورانت، غير أننا نقرأ في الفصل الثامن نصاً مشابهاً جاء فيه:«في هذه الأيام جميع مجرى وادي السيل ملىء تماماً، ومع هذا فإن آثاره، يمكن تتبعها وفق هذه الطريقة».

ونقل لورانت نصين عن طبعـة هنـريكوس كـانيسـوس، الذي حقق الطبعـة المبكرة من كتـاب مصنفنا هذا، فقـد أشـار بورتشـارد في هذين النصين بشكل اعتيـادي إلى أمـاكن في مجديبـورغ ومن حـولها، وذلك كمقيـاس للمسـافـات، ومن ذلك اعتقـد لورانت أننا نستطيع من دون خطر أن نفترض أنه كان ألمانياً، إن لم يكن من أهالي تلك المدينة.

وأكثر أهمية تقدير تاريخ كتابته وزيارته لفلسطين، فالحوادث التي أتى على ذكـــــرهـا تبرهـن أنه كتـب بعـــــــد سنـوات: ١٢٦٠ و ١٢٦٣و١٢٦٨،و١٢٧١، وقبل سنتـي ١٢٩١ و١٢٨٥، وعلى هذا فـإن تاريخ سنة ١٢٨٣ يبـدو صحيحاً، مع أنه لم يذكـره بنفسه، وذكـر بعض الكتاب أنه أمضى عشر سنوات في الأرض المقدسة، أي من سنة ١٢٧٥ حتى ١٢٨٥(انظر م. لى كـلارك — التـاريخ الأدبي لفـرنسـا: ٢١ / ١٨٢)، والمؤكد هو أنه أمضى عـامين هناك، ونستخلص هذا مما قاله في الفصل الـرابع، فقـــد كـــان هنـاك في أيام حكـم الملك المنصـــور قـلاوون(١٢٧٩ — ١٢٩٠)، سلطان مصر وخليفة بيبرس، وقـد كتب قبل ثماني سنوات من انتهاء الحروب الصليبية، وكان ذلك في أيام هنري ملك قبرص والقـــدس، وفي أثناء هدنـة العشر سنوات، التي أبرمهـــا قـــلاوون في سنة ١٢٨٢ م، مع الداوية والاسبتـــارية، ومن المفترض أن لقب De monte Sion الذي حمله، قد جاء مـن إقامته الطويلة في الدير هنـاك، لكن من الواضح أننا لا نمتلـك برهان قـــوي يبرهن هذا ويؤيده.

وكان بورتشارد مخلصـاً في تحرره من التعصب، مع أنه كما يبدو، كان

على المستوى الشخصي تقياً، وكانت رعايته ومساعدته للطوائف الأخرى مدهشة، ويبدو أن قراءاته كانت ضخمة،وقد أظهر كثيراً من الذكاء، في تعلمه ما أمكنه تعلمه أثناء رحلاته، وكذلك في استيعاب المعلومات التي تلقاها، وقد عاش فيما بين هراطقة وكفار، وبين نساطرة وأرمن وسريان، وكأنهم إخوان له، وقد أظهر أكثر من أي كاتب معاصر له مزيجاً غريباً من الشجاعة والتواضع، والإيمان، وحب المعرفة، ويبدو أن هذا كان من سمات الصليبيين في القرن الثالث عشر، وهي حقبة البطولة في العصور الوسطى، ولقد كان قادراً على زيارة بلدات هي الآن مدمرة، ومناطق كانت مزدهرة هي الآن مشعثة، ولم يكن بالطبع خلواً من السذاجة حيث قام بمزج الحكايات الخارقة، وردد أصداء الملاحم، فلقد كان حسبما وصفه م.ف.لى كلارك بقوله:

"il Faut reconnaitre chez ce religieux un esprit fort eleve, qui, au moment ou les croisades Finissent, raconte avec unenaivete admirable ce quil a vu ou cru voir. No us devonsa sa, curiosite attentive des abservations importantes de geographie et d,histoire naturelle" (التاريخ الأدبي لفرنسا:٢١/ ١٨٢).

وأتى فابري(١/ ٤/ ١٧) على ذكر بورتشارد بالاسم، ونقل مارينو سانوتو صفحات كثيرة من كتابه، قام بانتحالها حجاج آخرون، وفي هذا كله اعتراف مخلص بما قدمه، واعتماداً على بورتشارد قام الجغرافيون باستقاء المعلومات حول التقسيم الجغرافي لفلسطين، وسورية، والعربية، وعن مكانة دمشق الأبدية في سورية، وكذلك الكلام المضطرب حول الايطورية والطرخونية، الذي رددوه بصواب أعلى أو أدنى، ولقد كتب بورتشارد بلاتينية وسيطة جديدة، ونقل عن هوراس وكذلك عن جيروم ويوسيبوس، ولسوء الحظ أنه تولى وصف الأرض المقدسة

بوساطة خطوط تقسيم كثيرة، انطلاقاً من مدينة عكا، وهذه خطة لم تكن مجدية تماماً في التوضيح والتحديد، لكنها نقلت مع أشياء أخرى كثيرة من قبل مارينو سانوتو.

وصف بورتشارد راهب جبل صهيون للأرض المقدسة

تمهيد:

أخبرنا القديس جيروم أننا نقرأ في تواريخ قديمة حول رجال زاروا بلداناً، وعبروا بحاراً، إلى حد أننا يمكن أن نتصور معهم ونرى الأشياء التي قرأنا عنها في الكتب ورأوها بأنفسهم، وهكذا زار أفلاطون الكهان المتنبئين في ممفيس، وذهب أبولونيوس إلى مصر، ودخل إلى بلاد فارس، وعبر إلى القوقاز، وبلاد الألبان، والسكيزيين، والمسغيتيين Mes-sagetae، والهنود، والبراهمانيين، وذلك حتى يمكنه رؤية ياركاسIarchas ، وذهب أخيراً إلى مصر، حتى يمكنه رؤية مائدة الشمس الشهيرة في الصحراء الرملية، فما وجه العجب على هذا، إذا ما تشوق المسيحيون لرؤية الأرض التي تحدثنا عنها جميع كنائس المسيح، ولزيارتها؟ فقد بجل الناس القدماء قدس الأقداس، لأنه كان هناك تابوت العهد، والخيمة الملائكية مع كرسي الرحمة، والمن، وعصا هرون التي أزهرت، وهذا كله يشكل نماذج عن الأشياء التي ستأتي، وأوليس ضريح المسيح يستحق العبادة منا أكثر من أي شيء آخر، لأن أي إنسان كلما دخل إلى هناك، ومهما كان عدد المرات، سوف يتصور بعقله وبصيرته المخلص ممدداً هناك وملفوفاً بأقمشة كتانية؟ وإذا ما تقدم أكثر قليلاً، سوف يرى الصخرة وقد دحرجت وأزيحت، والملاك جالس عليها وهو يري النساء المنديل وأقمشة القبر، وأي مسيحي، بعد رؤيته لهذه الأشياء، لن يبادر مسرعاً بالذهاب إلى بيت لحم، ليرى الطفل الوليد وهو يبكي في المعلف، فقد جاءت مريم لتأوي إلى النزل الذي كان موجوداً تحت صخرة مجوفة، من الممكن رؤيتها في هذا اليوم.

وكان الملائكة يغنون: المجد للرب، والسلام للناس، وكان ذلك

بحضور الرعـاة، وأكثر عجباً من هذا كلـه، رؤية الحكماء الثلاثة بأبهتهم يركعـون أمـام المعلف، من دون سقف فـوق رؤوسهم، إلاّ الصخـرة الممتدة نحو الأمام؟، ودعه يعـود من هناك إلى القدس، عله يرى يسوعاً ويسمعـه وهو يعظ في الهيكل، ويعلم حـواريـه على جبل الزيتـون، ويتعشى على جبل صهيـون، ويغسل أقـدام حواريـه، ويعطيهم جسـده ودمـه، ويصلي في جيسماني، ويتعـرق دمـاً، ويقبّل الذي خـانه، ومن ثم يعتقل ويجر بقـوة إلى السجن ويسخر منـه، ويبصق عليه، ويحكم عليـه، ويحمل صليبـه، ويغرق تحت وطأة وزن الصليب أمـام باب المدينة الذي من الممكن رؤيته في هذا اليـوم، ثم يساعده سمعان القـرني، وبعد ذلك قيامه بالاحتفـال بأسرار قداس آلامه فوق أكـرا، وما برحت ذكرى كل واحدة من هـذه الأحداث، وكل واحد من هـذه الأماكن كاملـة وتامة، كما كانت عندما حدثت هذه الأشياء ها هنا، وفي الحقيقة هناك في المدينة أمـاكن كثيرة تقـدست بأحـداث آلام ربنا، إلى حـد أن يومـاً واحـداً لن يكون بأي حـال من الأحـوال كـافيـاً لزيـارتها جميعـاً بشكـل نافع، وبالاضافة إلى هذا كله، هناك أشيـاء أخرى تثير الناس في تلك الأماكن وتدفعهم إلى درجة عـالية من الانفعال العـاطفي، ومن هو الذي يمكنه أن يذكـر كم هو عدد الـرهبان والراهبـات من جـورجيا، ومن أرمينيـا الصغـرى والعظمى، ومن بلاد الكلـدان، وسـورية، وميـديا، وفـارس، والهند، وأثيـوبيـا، والنوبة، وكـذلك الأنبـاط، والموارنـة واليعـاقبـة، والنسـاطرة، والاغـريق، والسريان، ومن الطـوائف الأخـرى، الذين يتجـولون في هذه الأيام في تلـك البـلاد على شكل جماعـات، كل منهـا مكون من مـائـة أو مـائتين، أو أكثـر أو أقل، وهـم يزورون كل مكان مقدس، ويقبلون بعـاطفة جياشـة القلعة، ويتعبدون البقـاع التي سمعوا بأن يسـوعاً الجميل جلس عليهـا، أو وقف، أو عمل أي عمل؟ تراهم يضربون صدورهم، وهم يبكون أو يتنهدون، ويغنون بالدور، ويعبرون بمظاهرهم الجسـدية عن مشاعـرهم الدينيـة التي يمتلكونها بدون أدنى

شك، وعمق هـذه المشـاعـر كـان يستـدر عطـف الكثيرين حتى أن المسلمين كـانوا يبكون لذلك، فلقـد رأيت أيها المولى الـرب، إبراهيم، يسرع — كما حدثنا المؤرخون القـدماء — بمغادرة بلاده، وترك أسرته، وبيت أبيـه، ليقدم مسرعـاً إلى هذه البلاد، فينصب خيمتـه فيما بين بيت إيل، وبين عـــاي، ويقيم بعض الوقـت في جـــرار Gerar ، وبئر السبع، وحبرون، وإنني أرى حـزقيـال يغـادر ميـاه بابل، ويُحمل بشعـر رأسه فيما بين السماء والأرض، وهو يشق طريقـه إلى القدس، وما الذي يمكنني قوله عن العذراء الرائعـة، التي، بعد الاعلان الذي عمله الملاك لها، ووعدها، قد عرفت بأن رحمهـا قد عمل بيتاً للرب،فلم تكن راضية بسهول الجليل الواسعة والجميلة، بل بادرت مسرعة للصعود إلى المنطقة المرتفعـة في اليهـودية، وذلك لـرغبتهـا في أن تكون أقـرب إلى الأمـاكن المقـدسـة؟ ومـــا الذي يمكنني قـوله عن البطريـرك يعقـوب، ويوسف وأخـــوانه، الذين، لأنهم لم يستطيعـــوا السكنى في تلـك الأرض أثناء حياتهم، اختاروا أن يدفنوا فيها بعد مماتهم؟.

ومـا الذي أحتاجـه للقـول أكثر؟ من الممكن أن نتنهـد وننزعج تجاه انعـــدام الحماســـة لدى المسيحيين في أيـامنا، الذين لـديهم أمثلة كثيرة مضروبة أمام أعينهم، ويترددون في العمل على انتزاع البلاد التي قدسها يسوع بدمه، من أيدي الأعداء، مع أنهم يغنون يومياً بحمده في الكنائس خلال العـالم كله: لأنه لا يوجد يوم أو ليلةعلى مـدار السنة لايغني فيها كل مسيحي تقي، أو ينشد، أو يتلو، أو يعظ، أو يتفكر، أو يقرأ حول ما جرى أو كتب في هذه البلاد، وفي مدنها وأماكنها المقدسة؟.

وعندمـا رأيت أن بعض الناس قـد تملكتهم الرغبـة في أن يتصـوروا هذه الأشياء بعقـولهم، وهي الأشياء التي لم يكونوا قـادرين على رؤيتها بأعينهم، ورغبة مني في تلبية رغباتهم، بقـدر ما أمتلك من طاقة، فكرت بقدر ما أستطيع، في أن أكتب بكل عناية وصف ما أشاهده، وأن أصف

بدقة متناهية تلك البلاد، التي مررت ماشياً عليها مراراً، ذلك أنني أريد أن يعرف القارىء أنني لم أضمن أوصافي إلاّ ما رأيته بأم عيني، عندما كنت في المكان الموصوف نفسه، أو إذا لم أستطع الوصول إليه، كنت أراه من فوق أحد الجبال المجاورة، أو من مكان موائم آخر،ولقد دونت بدقة الأجوبة التي قدمت إلي من قبل السريان أو المسلمين، أو من قبل قوم آخرين من سكان البلاد، وذلك بعدما سألتهم بدقة متناهية.

وفي الحقيقة، لقد قلت: إنني إما مشيت على قدمي وطفت على البلاد كلها من دان إلى بئر السبع ومن البحر الميت إلى البحر المتوسط، فتلك هي حدودها، أو أنني تقصيت فبحثت بعناية حول الأماكن التي لم أستطع الوصول إليها.

ولدى تفكري وتقديري كيف يمكنني القيام بوصف هذه البلاد بشكل نافع ومفيد، ولكي يتمكن عقل قارئي بسهولة من فهم ما سأخبره عنه، رأيت اختيار نقطة مركزية ومن ثم إعداد البلاد كلها وترتيبها من حولها، وفق تنظيم صحيح، ولقد وقع اختياري على مدينة عكا لتكون هي المركز، لأنها معروفة أكثر من أي مكان آخر، ومع هذا فإن هذه المدينة ليست واقعة في وسط البلاد، بل هي قائمة على شاطىء البحر في الجزء الغربي من حدودها، وقد مددت من هناك أربعة خطوط، كل واحد منها متجه إلى إحدى اتجاهات العالم الأربعة، ولقد قسمت كل ربع إلى ثلاثة أجزاء، حتى تتوافق هذه الأجزاء الاثني عشر مع الرياح السماوية الاثني عشر، ووضعت في كل قسم من هذه الأقسام المدن والأماكن التي ورد ذكرها في الكتابات المقدسة، حتى يمكن بيسر وسهولة إيجاد موضع كل مكان، وجزء العالم الموجود فيه.

هنا بداية القسم الأول من البلاد المقدسة

١ — عليكم أن تعرفوا في البداية أن ما ندعوه باسم الأرض

المقدسة، هو ما وقع حصة لأسباط بني إسرائيل الاثني عشر، وقد عرف أول الأقسام باسم مملكة يهوذا، وكان حصة سبطي يهوذا وبنيامين، وعرف القسم الآخر باسم مملكة السامرة، وهو الذي يعرف في هذه الأيام بتبعيته لمدينة سبسطية، التي كانت عاصمة ديار الأسباط العشرة المتبقية، وهي التي عرفت باسم إسرائيل، وقد أطلق على هاتين المملكتين مع جميع بلاد فلسطيا، اسم فلسطين، وكانت فلسطين إحدى مقاطعات سورية، وذلك مثلما سكسوني أو فرانكونيا، مقاطعتين من بلاد ألمانيا، ومثلما لومبارديا وتوسكانيا مقاطعتين في إيطاليا.

ويمكن فهم هذا بقدر أكبر، إذا عرفنا بوجود عدد كبير اسمه سورية، وكل منها حمل اسماً مختلفاً، ومع هذا فإن مجمل البلاد الواقعة فيما بين نهر دجلة ومصر تدعى بشكل عام سورية، والجزء الأول من هذه البلاد هو الواقع ما بين نهري الفرات والدجلة، وهو الممتد طولياً من جبل طوروس حتى البحر الأحمر، ويدعى هذا الجزء باسم سورية الجزرية، لأنها تقوم في وسط المياه، وتحتوي على كثير من الشعوب، منهم مثلاً: الفرثيين والميديين، ويحدها من الجنوب بلاد الكلدان التي توجد فيها مدينة بابل، ومرة أخرى إن حدودها من الجنوب العربية، التي تمتد حتى البحر الأحمر، وهو الذي يدعى في هذه الأجزاء باسم الخليج العربي، هذا وإن الجزء الأول من هذا القسم الجزري كله، هو الجزء الذي يمتد نحو الشمال، وهو الذي اسمه بشكل خاص الجزيرة السورية، وفي هذا الشطر تقوم مدينة الرها، التي كانت تعرف في القديم باسم راسيس Races والآن باسم راسك Rasc فهذه هي سورية الأولى.

وسورية الثانية هي سورية المجوفة، التي تبدأ عند نهر الفرات، وتنتهي عند نهر بانياس الذي يجري عابراً قلعة المرقب، ويصب في البحر المتوسط عند مدينة بانياس، التي هي مقر أسقف، وتبعد فرسخاً واحداً

عن القلعة المتقدمة الذكر، وفي مقاطعة سورية المجوفة هذه تقوم مدينة أنطاكيةمع ملحقاتها، مثل اللاذقية وأفاميا وسواهما كثير.

وسورية الثالثة هي سورية فينيقية، التي تبدأ في الشمال عند النهر المتقدم الذكر، أي نهر بانياس، وتمتد جنوباً حتى بترا إنشيسا Incisa ، أو القفار عند سفوح جبل الكرمل، ويدعى هذا المكان في هذا اليوم باسم قلعة الحجاج(عثليت) وهي من أملاك فرسان الداوية، وفي سورية الفينيقة هذه كثيراً من المدن، من ذلك مثلاً: المرقب، وطرطوس، وطرابلس، وبيروت، وصيدا، وصور، وعكا، وكفر ناحوم، وقد عرفت هذه المنطقة باسم سورية الفينيقية صدوراً عن اسم ابنة أغينور التي كانت أختاً لقدموس، فهو الذي بنى صور، وجعلها المدينة الرئيسية في هذه البلاد، وأطلق اسمه على البلاد، فعرفت به.

وسورية الرابعة هي سورية دمشق، حيث مدينة دمشق هي العاصمة هناك ،وسورية هذه متصلة بسورية الثالثة، أي سورية فينيقية، وذلك من الجهة الشرقية هناك، وتدعى سورية الرابعة هذه أيضاً باسم سورية لبنان، لأن جبل لبنان المشهور موجود فيها.

والتالي لسورية الرابعة هذه، أي سورية فينيقية(كذا) فلسطين، التي يتوجب دعوتها باسم فلسطيم Philistiim ، بسبب وجود فلسطينيات ثلاثة، وهؤلاء الثلاثة جميعاً أجزاء من سورية الكبرى، وهي كمايلي: فلسطين الأولى، وهي المقاطعة التي عاصمتها مدينة القدس، وذلك مع جميع المنطقة التلية الموجودة هناك حتى البحر الميت، لابل حتى القفار وإلى قادش بارينا(القفار)، وعاصمة فلسطين الثانية هي قيسارية فلسطين، التي تعرف أيضاً باسم قيسارية القائمة على شاطىء البحر، وذلك مع جميع بلاد فلسطيم شروعاً من بترا انشيسا، أو قلعة الحجاج(عثليت)، وذلك امتداداً نحو الجنوب حتى بيسان، وفلسطين الرابعة هي تلك التي عاصمتها بيسان، وذلك على مقربة من نهر

الأردن، عند سفح جبل جلبوع، وكانت هذه المدينة تعرف فيما مضى باسم سكيزوبولس، والصحيح هو دعوة فلسطين هذه باسم الجليل، أو مرج ابن عامر الكبير.

وهناك مثل هذا ثلاث عربيات، هي بالطريقة نفسها أجزاء من سورية الكبرى، والعربية الأولى هي التي عاصمتها بوستروم، التي تعرف الآن باسم بُزريث Buzereth ، وفي القديم باسم بصرى، ويحد هذه المقاطعة من جهة الغرب الطرخونية والإيطورية(الجيدور)، كما يحدها من الشمال دمشق، ولهذا السبب عرفت سورية دمشق باسم«العربية»، وهذا يعلل لماذا أطلق على أرتاس Arethas اسم ملك العربية، في حين كان هو في الحقيقة ملك دمشق، والعربية الثانية هي المنطقة التي عاصمتها هي البتراء، التي كانت تعرف بالقديم باسم ربّاث Rabbath على جدول أرنون Arnon ، وكانت هذه العربية هي بلاد أبناء عمون، ومهما يكن من أمر فإن مدينة عار Ar كانت في بلاد مآب، وهي تحتوي على مملكة سيحون ملك حشبون، ومملكة عوج ملك بيسان وجبل جلعاد، وهي تحد العربية الأولى من جهة الجنوب، والعرية الثالثة هي التي عاصمتها الشوبك، والتي تعرف أيضاً باسم الكرك، وهي التي عرفت فيما مضى باسم القفار، وهي قائمة على مقربة من البحر الميت، وتحتوي هذه العربية على بلاد مآب، التي ينبغي أن تدعى باسم سورية سوبال، وتحتوي أيضاً على جميع أدوم التي هي جبل سعير، وعلى جميع المنطقة القائمة حول البحر الميت حتى قادش بارينا، وعصيون جابر، وباتجاه البحر الأحمر عبر الجزء الأعرض من القفار حتى نهر الفرات، وهذه هي العربية الكبرى التي فيها مكة، المدينة المدفون فيها محمد(ﷺ)(كذا).

وليكن ما قيل حتى الآن عن البلدان المصاقبة للأرض المقدسة كافياً، ولقد أخذت الجزء الأكبر مما قدمته من كتابات الأب المبجل في الرب،

اللورد جيمس دي فيتري، نائب الكنيسة الرومانية المقدسة في الأرض المقدسة، ومهما يكن الحال، لقد رأيت معظم هذه الأماكن بأم عيني.

ودعوني الآن أحول قلمي إلى وصف خاص للبلاد التي صارت من نصيب الأسباط العشرة.

٢ — وينبغي أن تعرفوا أولاً وقبل كل شيء، كما قلت من قبل، بأنني قد قسمت الأرض المقدسة إلى أربعة أقسام، وذلك تماشياً مع الأقسام الأربعة للسماء، أي: الشرق، والغرب، والجنوب والشمال، وبناء عليه فإن مجمل القسم الغربي متجه نحو البحر المتوسط، ومثل ذلك أجزاء القسمين، الجنوبي والشمالي، التي هي متصلة بالقسم الغربي. وعلى هذا سوف أبدأ مع الخط المستقيم لمدينة عكا، التي كانت تعرف قديماً باسم بطوليس، وأن أسير باتجاه الشمال لأصف المدن والأماكن القائمة على شواطىء البحر المتوسط.

وسوف نشرع على هذا بوصفنا من مدينة عكا، ونمضي من هناك بخط مستقيم نحو صور، ثم إلى المدن التالية لها، فهذه سنتولى وصفها في أماكنها، لكن من المعروف أن هذه المدينة لم تكن قط جزءاً من الأرض المقدسة، كما لم يتملكها بنو إسرائيل في يوم من الأيام، وعلى كل حال إنهم عندما اقتسموا البلاد فيما بينهم أعطيت إلى سبط آشر، غير أن سبط آشر لم يتملكها قط، فهي واقعة في مقاطعة فينيقية، وعلى بعد أربعة فراسخ نحو الجنوب يقوم جبل الكرمل، ومدينة حيفا، التي تقوم عند سفح هذا الجبل نفسه، خلف جدول قيسون، حيث قتل النبي إيليا كهنة بعل.

وتمتد مقاطعة فينيقية، أو سورية الفينيقية، مسافة ثلاثة فراسخ باتجاه جنوب هذا المكان حتى بترا إنشيسا، التي تعرف باسم قلعة الحجاج (عثليت)، فهذا المكان هو الحد الجنوبي لفينيقية.

ومدينة عكا محصنة بالأسوار، وبتحصينات خارجية، وبأبراج، وخنادق، وشرافات وسواتر قوية جداً، وهي مثلثة بشكلها مثل ترس، حيث يطل طرفان منها على البحر المتوسط، أما الطرف الثالث، فيطل على السهل المحيط بها، وعرض هذا السهل أكثر من فرسخين في بعض الأجزاء، وفي بعض الأجزاء أقل، وهو خصب جداً، في المروج وفي الأرض المفلوحة، وفيه كروم وحدائق، ينمو فيها جميع أنواع الفواكه، ويوجد في المدينة عدد من الأماكن الحصينة والقلاع والحصون ممتلكة من قبل فرسان طوائف: الاسبتارية، والداوية والتيوتون، وهذه المدينة من أملاك ملك القدس، ولها ميناء واسع جداً، وذلك على الجانب الجنوبي حيث يمكن للسفن أن ترسو.

وعلى بعد أربعة فراسخ باتجاه الشمال من عكا تقوم قلعة ايمبرتي[حمصين] على شاطىء البحر، وهي مثل ذلك فيها وفرة من الكروم والحدائق، والمياه الجارية، وذلك عند سفح جبل شارون.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من هناك، وبعدما يعبر الانسان جبل شارون، تقوم قلعة اسكندرونة[جنوب صور]، التي يقال بأن الاسكندر الكبير قد بناها عندما كان يحاصر مدينة صور، وقد أعاد بلدوين ملك القدس عمارتها، وأسند حفظها إلى بعض النبلاء الذين نالوا ألقابهم منها، وفيها وفرة من المروج، والمراعي، وحقول التين، والزيتون، والكروم، وذلك وسط مياه جارية وحدائق.

وعلى بعد أكثر من فرسخ بقليل من هذه القلعة، يوجد بئر مياه الحياة الرائع(رأس العين) وذلك على بعد رمية سهم بعيداً عن الطريق الذي يقود إلى صور، ومياه هذا البئر قادمة من لبنان، وذلك حسبما جاء في نشيد الانشاد، ومع أنه يدعى بئراً بالمفرد، هناك أيضاً أربعة آبار أخرى، لها الشكل نفسه، لكن لها أحجام مختلفة، والبئر الرئيسي بينها مقياسة أربعين ذراعاً بالطول وكذلك بالعرض، وذلك حسبما قسته أنا شخصياً،

أما مقياس كل واحد من الثلاثة الأخرى فهو حوالي خمسة وعشرين ذراعاً، وهذه الآبار كلها مسيجة بأسوار قوية جداً من حجارة قاسية جداً، وهذه الأسوار متصلة ببعضها آخذة شكل بناء لا يمكن تدميره، وارتفاع الأسوار مقدار رمح أو حتى أعلى من ذلك، وتتجمع المياه في هذه الآبار ثم ترتفع، فتتدفق من فوق الأسوار من كل جانب، وهناك مجرى ماء ينطلق من هذا المكان، ويسوق الماء داخل أقنية عميقة ومرتفعة بقدر قامة إنسان، فلقد جربت هذا وعرفته بنفسي، وذلك عندما دخلت إلى مجرى الماء الذي تجري فيه المياه، ويجر أهالي صور هذه المياه إلى جميع أجزاء السهل، حيث يسقون بها الحدائق والبساتين، والكروم، وقصب السكر، الذي ينمو هناك بكميات عظيمة، ومنه يتلقى صاحب صور مداخيل كبيرة، وتقوم هذه الآبار على بعد أكثر بقليل من رمية سهم بعيداً عن شاطىء البحر المتوسط، ومياههم هذه تدير في تلك المسافة الضيقة دواليب ست طواحين ذوات حجم كبير، وتصب بعد هذا في البحر، وواضح أن هذه الينابيع تتوافق تماماً مع ما جاء في الالهيات[٢٤/ ٣١]:«سوف أسقي حديقتي الأفضل، وسوف أروي بوفرة أرض حديقتي، وانظروا لقد صار جدولي نهراً، وصار نهري بحراً»، وهذه المياه موائمة كثيراً ومفيدة للسكان.

وعلى بعد أقل من فرسخ واحد عن هذا البئر تقوم مدينة صور، وهي واقعة على شاطىء البحر، وقد نالت المدح والاطراء بما فيه الكفاية من قبل حزقيال، وإشعيا، وارميا، ومن أسفار العهد القديم الأخرى، وكان من المعتاد امتلاكها لجدول من مياه الحياة المتقدمة الذكر، جلب من هناك من خلال أنابيب مدهشة، وأهرامات ما تزال آثارها مشاهدة حتى هذا اليوم، ولقد زرت هذه الأماكن ورأيتها بعيني.

ويحكى بأن مدينة صور قد بنيت من قبل تيراس بن يافث، وكان ذلك بعد الطوفان، ثم أعيدت عمارتها من قبل فينيق، كما تقدم القول،

وصارت عاصمة فينيقية، ولها أسوار واسعة محيطة بها، هي كما أعتقد أعظم من أسوار مدينة عكا، وهي ذات شكل مستدير، تقف في البحر، فوق صخرة قاسية جداً، محاطة تقريباً من جميع الجهات بالبحر، وذلك باستثناء الجهة الشرقية، من المدينة، وهي منها قام نبوخذ نصر أولاً، ثم الاسكندر فيما بعد، بوصلها باليابسة، وذلك لمسافة مقدارها رمية حجر، وهي مسيجة في هذا المكان بثلاثة أسوار، قوية وعالية، وسماكتها خمسة وعشرين قدماً، وقد جرى تمتين هذه الأسوار كثيراً بوساطة اثني عشر برجاً حصيناً، هي الأحصن بين ما شاهدته، حيث لا مثيل لها في جميع أنحاء العالم، والقلعة متصلة بهذه الأبراج، وهي قلعة فائقة القوة والحصانة، قائمة فوق صخرة في البحر، ومحاطة أيضاً بأبراج مع أماكن حصينة، ولا يمكن للعالم كله أن يستولي على هذه المدينة بغير خيانة، وفي هذه المدينة آثار مقدسة كثيرة، وذلك حسبما نعلم من خلال التاريخ اللاهوتي، حيث حدثنا عن الشهداء الذين تألموا هناك في أيام ديوكلشيان، فالرب وحده يعلم كم هو عددهم، ويرقد أورجين مدفوناً هناك، في قبر مبني في جدار كنيسة الضريح المقدس، فلقد رأيت ضريحه هناك، ويوجد هناك أعمدة من الرخام والحجارة الأخرى، بأحجام عظيمة يقف الانسان مندهشاً لدى رؤيته لها.

ويوجد في هذه المدينة كرسي رئاسة أسقفية، فهي المدينة المطرانية لفينيقية، ولرئاسة الأساقفة فيها نواب ومساعدون منهم أساقفة بيروت، وصيدا، وعكا، وتمتد رعوية هذه المطرانية حتى بترا انشيسا، أو قلعة الحجاج(عثليت) التي تقدم ذكرها.

وقد أمضيت هناك مرة عشرة أيام، وقمت في مرات كثيرة بفحصها بكل دقة وبقدر ما استطعت.

وعلى الرمال، على مسافة رميتي سهم، خارج بابها الشرقي، يعرضون مكاناً، يقولون بأن المسيح قد وعظ فيه، حيث رفعت امرأة كانت بين

الحشد صوتها،وقالت:«بورك الرحم الذي حملك»الخ، ويعرضون أيضاً هناك صخرة عظيمة، كان المسيح قد وقف عليها آنذاك، وهذا المكان لم تغطه الرمال قط، مع أن الرمال في ذلك المكان خفيفة، وتتطاير هناك مثلما يتطاير الثلج في الشتاء في البلدان الغربية والشمالية، ولدى تطاير الرمال بوساطة الريح تتكوم هناك الأسيجة والأماكن المشابهة، غير أن هذا المكان، وإن قام في وسط الرمال، قد بقي دوماً غير مغطى في الصيف وفي الشتاء، وذلك حسبما رأيت بعيني.

ويوجد في ذلك المكان أيضاًعمود مرمي على الأرض، مشكلاً علامة، قد قيل بأن تلك البقعة هي المكان الذي جرى فيه قتل بعض الحجاج لدى زيارتهم لتلك المنطقة، وقد قتلوا بشكل خياني من قبل المسلمين.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ قصيرة، إلى الشمال من صور، يجري نهر الليطاني، ويصب في البحر المتوسط، وإلى هذا النهر وصل يوناثان أثناء مطاردته للملك ديميتريوس، وذلك حسبما نقرأ في سفر المكابيين الأول، وينبع هذا النهر من ايطورية أو جليل الأمم، وذلك من منطقة كان اسمها في القديم بلاد الراحوب، وصار فيما بعد كابول، وهو يجري قاطعاً قلعة الشقيف، التي يمتلكها فرسان الداوية، وذلك على مقربة من رامه، التي هي المكان الذي إليه طارد يوشع الملوك الواحد والثلاثين، وذلك حسبما نقرأ في سفر يوشع.

وعلى بعد فرسخين من هذا النهر تقوم صرفند الصيداويين، التي يرى الناس أمام بابها الجنوبي بيعة أقيمت فوق المكان الذي جاء إليه النبي إيليا إلى المرأة الصرفندية حيث سكن، ثم أقام ابنها من الموت، والعلية التي استراح فيها ما تزال مشاهدة هناك حتى الآن، ولا تحتوي الصرفند على أكثر من ثمانية بيوت قائمة، وتدل خرائبها على أنها كانت فيما مضى مدينة عظيمة.

وعلى بعد فرسخين تقوم صيدا، التي هي مدينة عظيمة في فينيقية، ويبرهن على ضخامة حجمها حتى هذا اليوم خرائبها، وكانت عظيمة إلى حد أنني لو أردت الكتابة عنها، فإن ذلك سيكون صعب التصديق، وكانت قائمة فيما مضى وسط سهل مستطيل الشكل، يمتد من الشمال إلى الجنوب عند سفح جبل لبنان الغربي، فيما بينه وبين البحر، وكانت مدينة فائقة الجمال، ولقد بني من وسط خرائبها مدينة أخرى، وصحيح أنها مدينة صغيرة بالفعل، لكنها حصينة، فهي أشبه بالحصن، وهي قائمة جزئياً على ساحل البحر، ولها على جانبيها قلعتين حصينتين جداً، الأولى قائمة في الشمال قائمة على صخرة في البحر، وقد بنيت هذه القلعة هناك من قبل حجاج من ألمانيا، وتقوم القلعة الثانية في جهة الجنوب، فوق رابية، وهي جيدة الحصانة، وهاتين القلعتين مع المدينة أيضاً تحت سلطان فرسان الداوية.

والمنطقة المجاورة خصيبة جداً، وفيها وفرة عظيمة من الأشياء الجيدة، ولها مناخ صحي تماماً، وهناك قصب سكر ممتاز، وكروم.

وأمام الباب الشرقي للمدينة القديمة، التي هي خرائب الآن، تقوم بيعة فوق المكان الذي جاءت إليه امرأة كنعانية، والتمست عونه من أجل ابنتها التي تلبسها الشيطان، وكان ذلك على الطريق الذي يقود إلى الايطورية وإلى قيسارية فيليب(بانياس).

وتقع سلسلة لبنان الغربية على بعد فرسخ واحد إلى الشرق من صيدا، ويبدأ هذا الجبل، عند نهر الليطاني الذي تقدمت الاشارة إليه، ويمتد إلى مسافة سفر خمسة أيام، أي خمسة فراسخ فيما وراء طرابلس، وهو لا يبعد مطلقاً أكثر من فرسخين عن البحر، باستثناء قرب طرابلس، حيث أنه يبعد نحواً من ثلاثة فراسخ، ويصل في بعض الأماكن إلى قرب البحر، إلى حد عدم توفر طريق للعبور، وهو مليء بكروم رائعة، وذلك مثلما كتب عنه:«والرائحة هناك ستكون كخمر

لبنان»[هوشع:١٤/ ٧ — مع فوارق]، وتصنع الخمرة الجيدة على طول الطريق إلى قلعة المرقب.

وعلى بعد تسعة فراسخ فيما وراء صيدا، تقوم مدينة بيروت القديمة والجليلة، حيث يقال بأن الرب قد بشر ووعظ، وصنع اليهود تمثالاً من صلصال سخرية منه، وعندما صلبوا هذا التمثال سال منه كثيراً من الدم، مازال محفوظاً بإجلال حتى هذا اليوم في أماكن كثيرة.

والأسقف في هذه المدينة هو نائب لرئيس أساقفة صور، مثله في ذلك مثل أسقف صيدا، ويمتد الكرسي المطراني لمدينة صور لمسافة ثلاثة فراسخ بعد بيروت، أي إلى ممر نهر الكلب،فهناك يصب هذا النهر في البحر، ومثل ذلك تنتهي هنا حدود بطريركية القدس، وهنا تبدأ بطريركية أنطاكية وكونتية طرابلس، ويدعى هذا المكان باسم ممر الكلب، ولا يمكن عبوره إلاّ بإذن من المسلمين، لأن عدة رجال فقط يمكنهم أن يمنعوا العالم كله من العبور هناك.

وعلى بعد ستة فراسخ من بيروت، وعلى شاطىء البحر، تقوم مدينة بيبلوس[جبيل]، وهي أول مدينة في بطريركية أنطاكية، ولهذه المدينة أسقف خاص بها، وقد أشار حزقيال إلى هذه المدينة أثناء مدحه لمدينة صور حيث قال:« شيوخ جبيل وحكماؤها كانوا فيك قلافوك، جميع سفن البحر وملاحوها كانوا فيك ليتاجروا بتجارتك»[حزقيال:٢٧/ ٩]، وصاحب جبيل هو من أتباع كونت طرابلس، واسم هذه المدينة في هذه الأيام جبيل، وهي مدينة صغيرة جداً.

وعلى بعد أربعة فراسخ من جبيل تقوم البترون، وهي مدينة كانت فيما مضى غنية جداً بإنتاج خمر رائع، لم يكن في الدنيا أجود منه، غير أنها مدمرة الآن تماماً.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ تقوم قلعة[أنفة] راس شكا، التي معظمها تقريباً قائم في البحر، وهي من ممتلكات أمير أنطاكية، ولقد رأيت فيها اثني عشر برجاً، والموقع بالفعل حصين جداً، والخمرة في هذه البلدة هي الخمرة الأكثر شهرة في جميع هذه الأماكن.

وعلى بعد فرسخين من راس شكا، وخلفها تقوم مدينة طرابلس، وهي مدينة جميلة جداً، قائمة كلها تقريباً في البحر، مثلها في ذلك مثل صور، وهي مليئة بالناس، حيث يسكن فيها الاغريق واللاتين والأرمن، والموارنة والنساطرة، وآخرون كثر، وكثير من الأعمال تعمل فيها من الحرير، وسمعت بشكل مؤكد أن فيها نساجون للحرير، ولوبر الجمل، ولأقمشة أخرى مماثلة.

ولاشك أن المنطقة المحيطة يمكن دعوتها باسم الفردوس، بسبب وجود ما لاحدود له من الكروم الجميلة، ومغارس الزيتون، والتين، وقصب السكر، ولا أذكر أنني رأيت مثل هذا في أي مكان آخر من العالم.

وطول السهل القائم أمام المدينة فرسخ، وعرضه نصف فرسخ، ويوجد في هذه البقعة حدائق، فيها مختلف أنواع الفواكه بوفرة كبيرة، حتى قيل بأن دخل أصحابها منها كل سنة يبلغ ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ وراء هذه المدينة يقوم جبل لبنان، الذي ينبع عند سفحه«نبع الحدائق»(نهر قاديشا)، وهو نبع لمياه الحياة، وجداول من لبنان، نقرأ عنها في نشيد سليمان، ويظهر هذا النبع أنه ينبع قليلاً، لكنه يقوم فجأة بجمع قواه، فيعمل نهراً قوياً وفائق العظمة، وهويسقي جميع الحدائق والسهل بين طرابلس وبين لبنان، ويزيد من ثراء المنطقة بشكل رائع، ومياهه ممتازة، حيث أنها باردة وعذبة، ويوجد على ضفته كثيراً

من الصوامع، كما جرى بناء الكثير من الكنائس، وينبع كما قلنا من سفح الجبل، ويلتف جزئياً حول جبل النمور، ثم يساق بين الحدائق لسقايتها، هذا ولن نقوم بذكر الجداول الأخرى التي مثل هذا تصب في البحر، في أماكن مختلفة، ومؤكد ما جاء في سفر إستير وقيل عن هذا النبع«ومن نبع صغير صنعت فيضاً عظيماً، وماء كثيراً»، [استير:١١/ ١٠].

وعلى فرسخين من طرابلس يقوم جبل النمور، الذي له شكل مستدير، وهو مرتفع بعض الشيء، قائم على بعد فرسخ واحد من لبنان، ولقد رأيت عند سفحه، في الجانب الشمالي كهفاً فيه قبر طوله اثني عشر قدماً، ويزور المسلمون هذا المكان بتقوى، ويقولون بأنه قبر يوشع، وهذا مالا أعتقد أنه صحيح، لأن العهد القديم قال بأنه دفن في تمنه — حارس[القضاة: ٢ / ٩] إلى جانب جبل افرايم، قرب شكيم، والذي أميل للاعتقاد به أن هذا هو قبر كنعان بن حام بن نوح، أو قبر واحد من أولاده، الذي من الممكن البرهنة على أنه سكن في ذلك المكان نفسه، وذلك حسبما سنتحدث فيما بعد.

وعلى بعد حوالي ثلاثة فراسخ إلى الشمال من هذا الكهف تقع نهاية جبل لبنان وسلسلة جبال لبنان الشرقية، ويرى الانسان عند المكان الذي يلتقيان فيه قلعة عرقة، وهي القلعة التي بناها عرقة بن كنعان، وأطلق عليها اسمه، فهذا ما نتعرف عليه من سفر التكوين:١٠، ومن أخبار الأيام الأول:١/ ١٥، وهذه الأرض الذي ينتهي بها جبل لبنان رائعة جداً وجميلة، وخصبة، أما من أجل وضع وطول جبل لبنان فلسوف أحدثكم عن ذلك لدى الحديث عن قيسارية فيليب[بانياس] ونبع نهر الأردن.

وعلى بعد نصف فرسخ إلى الشرق من قلعة عرقة، تقوم السن، وهي بلدة بنيت من قبل سينوس بن كنعان، وهو أخو عرقة، وكان ذلك بعد

الطوفان، وليس بعيداً عن عرقة، وذلك حسبما جاء الخبر في شروح سفر التكوين، ومهما يكن من أمر، فإن النساطرة الذين يسكنون هناك قد أخبروني، بعدما سألتهم،، بأن البلدة قد حملت اسمها من سينوكيم Synochim، ولقد حصلت على الجواب نفسه من مسلمي ذلك المكان.

ودون قلعة عرقة وبلدة سينوكيم، يوجد سهل كبير، فائق الجمال والخصوبة، ويمتد حتى الكرك[حصن الأكراد]، التي كانت فيما مضى من ممتلكات فرسان الاسبتارية، وذلك امتداداً حتى أنطرطوس التي تعرف الآن باسم طرطوس، وطول هذا السهل حوالي أحد عشر فرسخاً، وستة فراسخ عرضاً، ويحتوي هذا السهل على الكثير من القرى، والحدائق الجميلة، وأشجار الزيتون، وأشجار التين، وبقية أنواع أشجار الفواكه من مختلف الأنواع، إلى جانب الكثير من الأخشاب، فضلاً عن هذا كله، في هذا السهل وفرة من الجداول، والمراعي، ولهذا يسكن التركمان، والمدينيين Midianites ، والبدو هناك في الخيم مع زوجاتهم وأولادهم، وقطعانهم وجمالهم، ولقد رأيت هناك قطيعاً كبيراً جداً من الجمال، وأعتقد أنه كان هناك عدة آلاف من الجمال.

ويحد هذا السهل من جهة الشرق جبال مرتفعة لكن ليس كثيراً، وترتفع هذه الجبال على مقربة من عرقة، وتمتد حتى الكرك، ويسكن في هذه الجبال قوم اسمهم الباطنية جفاة، وأناس قساة يكرهون الصليبيين، والمسافة من بلدتي عرقة وسينوكيم، عبر ذلك السهل إلى طرطوس هي ثمانية فراسخ، وعرفت طرطوس بهذا الاسم لأنها تقوم في مقابل أرواد.

وأرواد هي جزيرة في أعماق البحر، وذلك على بعد نصف فرسخ عن اليابسة، وقام فيها وما يزال حتى أيامي هذه مدينة جميلة، ورد ذكرها لدى حزقيال في قوله:«بنو إرواد مع جيشك على الأسوار من حولك»[حزقيال:٢٧/ ١١]، وقد جاء في الشرح قوله:«أرواد مدينة

قائمة في البحر في مقابل طرطوس وعلى مقربة من صور»، وفي الحقيقة إن المسافة فيما بينها وبين صور سفر خمسة أيام، وأسس هذه المدينة أراديوس، وهوابن كنعان، وكان ذلك بعد الطوفان.

ولنلاحظ هنا أن حام بن نوح، قد ولد كنعان، بعد الطوفان، وولد كنعان صيدون، الذي كان أول أولاده، وكذلك حثيا،واليبوسي، والأموري، والجرجاشي، والحوي، والعرقي، والسيني، والأروادي، والصماري، والحماني[التكوين:١٠/ ١٥ — ١٨]، ومن هؤلاء انتشرت أسر الكنعانيين في الخارج، وأربعة من الأحد عشر ولداً من أولاد كنعان، وأعني بذلك: صيدون، بكره، وهو الذي بنى صيدا، وعرقة وهو الذي أسس عرقة، وسينوس وهو الذي أسس سينوكيم، وأرواد وهو الذي أسس أرواد، وكما قلنا، إن هؤلاء الأربعة قد بقيوا في تلك البلاد القائمة عند نهاية لبنان، وذلك حسبما حكي لنا، غير أن السبعة الآخرين، أي:حيثا، ويبوس، وأمور، وجرجاش، وحوي، وعرقة، وحماني، قد تركتهم يارب إسرائيل لأنفسهم، حتى يتعلموا كيف يقاتلون، هذا وأوابد وأضرحة الأولاد الأربعة الأول مرئية في هذه الأيام على بعد فرسخ واحد قبل أن يصل الانسان إلى طرطوس، وهي فائقة الثراء ولها حجم رائع، ولقد رأيت الحجارة هناك، وقمت بقياس إحدى الحجارة فوجدت طولها أربعة وعشرين قدماً وعرضها مثل ارتفاع رجل طويل، وعلى هذا إنه لأمر رائع النظر إليها، فكيف جرى رفع هذه الأحجار ومن ثم استخدامها في البناء، فهذا كله فوق فهم الناس وإدراكهم.

وإلى جانب طرطوس، وعلى بعد نصف فرسخ إلى الشرق منها، هناك بعض الجبال، غير أنها ليست عالية جداً، كما أنه ليس من الصعب الوصول إليها، وهؤلاء في البلاد التي اسمها بلاد الحشيشية، الذين سوف نأتي على وصف طقوسهم بشكل مطول أكثر فيما بعد.

وقد بشر القديس بطرس لمدة طويلة في طرطوس، وذلك عندما كان في طريقه إلى أنطاكية، فهذا ما نقرأ عنه في رحلة القديس كليمنت.

فهنا وجد كليمنت أمه، وهنا أيضاً بنى القديس بطرس أول كنيسة تشريفاً للعذراء المباركة، وهذه الكنيسة موجودة حتى هذا اليوم، وقد احتفلت فيها بقداس، لأنني أقمت هناك لمدة ستة أيام.

وعلى بعد سبعة فراسخ من طرطوس تقوم قلعة المرقب، التي هي من أملاك رهبان الاسبتارية، أي فرسان مشفى القديس يوحنا، وهذه القلعة مطلة على مدينة بانياس، وعلى بعد فرسخ واحد عن البحر، وهي محصنة بشكل جيد، وقائمة فوق جبل مرتفع جداً، وقد نقل الآن مقر الأسقف الذي كان في بانياس، إلى القلعة، وذلك بسبب إهانات المسلمين، والأسقف هناك هو نائب لرئيس أساقفة أفاميا، مثله في ذلك مثل أسقف عرقة.

وتشكل مدينة بانياس، والنهر الذي يحمل الاسم نفسه، وهو الذي يجري مجتازاً لها، حدود مملكة القدس، وهنا، بالوقت نفسه، تبدأ إمارة أنطاكية، وهنا أيضاً تنتهي كونتية أنطاكية، والآن، إنه على كل حال، لقد سافرت إلى ما وراء هذا المكان، ورأيت البلاد، ومع هذا لم أكتب شيئاً عنها، لأنني لا أنوي أن أكتب شيئاً، إلاّ عن الأرض المقدسة.

وليكن ما قد قيل فيه كفاية عن القسم الأول.

هنا بداية القسم الثاني من الأرض المقدسة

٣ — ينطلق القسم الثاني من عكا نحو الشمال، وأول مكان يصل الانسان إليه، إذا ما انطلق من عكا باتجاه الشمال تماماً، هو القلعة التي كانت تعرف باسم قلعة القرين، والتي كانت فيما مضى من أملاك فرسان التيوتون، وهي الآن مهدمة تماماً.

وعلى بعد أربعة فراسخ منها، وبالاتجاه نفسه تقوم قلعة تبنين، وهي مكان حصين جداً، قد بنيت من قبل صاحب طبرية، وذلك لضبط مدينة صور، عندما كانت صور بأيدي المسلمين، وهي تبعد سبعة فراسخ عن مدينة صور.

وعلى بعد أربعة فراسخ من هناك تقوم مدينة حاصور[قرب نبع الليطاني] القديمة، حيث سكن هناك الملك القوي يابين، الذي قاتل ضد يوشع وإسرائيل مع الملوك الواحد والثلاثين عند مياه ميروم، ولقد جاء في سفر يشوع:١١، بأن يوشع قد أحرق مدينة حاصور القوية بالنار، ويشهد على شهرة هذه المدينة حتى هذا اليوم خرائبها، وآثارها.

وعلى بعد حوالي الستة فراسخ إلى الشمال من هناك، توجد مدينة بانياس، وذلك عند سفح جبل لبنان، وكانت هذه، حسبما قرأنا في سفر القضاة، تعرف أولاً باسم ليش Laish ، وبما أنها كانت بعيدة عن صيدا، مسافة تقارب الأحد عشر فرسخاً، وبما أنها لم يكن لها حلفاء(كانت موجودة في الوادي المجاور لبيت راحوب) فقد استولى أولاد دان عليها، وأطلقوا عليها اسم لشم — دان[يشوع:١٩/ ٤٧]، وذلك صدوراً عن اسم أبيهم دان، وغالباً ما أطلق عليها فقط اسم دان، وذلك تماشياً مع ما جاء في التوراة قوله«يجتمع إليك كل إسرائيل من دان إلى بئر السبع»[صموئيل الثاني:١٧/ ١١]، ذلك أن هذه المدينة تشكل الحد الشمالي للأرض المقدسة، مثلما تشكل بئر السبع الحد من الجنوب، وعلى هذا نقرأ في سفر الملوك الأول:١٩/ ٣ بأن:«إيليا أتى إلى بئر السبع التي ليهوذا»، ثم نقرأ بعد هذا أنه هو نفسه:«سار في البرية مسيرة يوم»، ولا شك أن هذا يعني بجوار تلك المدينة، واسمها الآن بيت جبرين(كذا)، هذا وعندما كان فيليب طيطراخ الايطورية مع منطقة الطرخونية، رغب في أن تحمل مدينة بانياس — أو دان — اسمه، وأن يصبح اسمها قيسارية فيليب، ويطلق عليها الاغريق اسم

بانياس، وهذ الأسماء كلها باتت منسية الآن، وهي تدعى بشكل عام باسم بلنياس.

وفوق هذه المدينة، من على الجانبين هناك نبعا نهري«الأر» و«دان»، وذلك عند سفح جبل لبنان، وهما يلتقيان أمام باب المدينة، ويشكلان نهراً واحداً، وهو نهر الأردن.

لكن لاحظ أن هذا ليس نبع الأردن الحقيقي، لأن يوسفيوس أخبرنا — وما قاله صحيح — أنه على بعد مائة وعشرين غلوة من ذلك المكان هناك نبع اسمه فياله Phiale [بركة الرام] هو ملىء بشكل دائم، ولم يفض قط، بل يجري تحت الأرض إلى ذلك المكان، وهناك يتدفق، ومن ثم يعرف باسم دان، وقد تبرهن هذا في كثير من الأحيان برمي قش في فياله، والعثور عليهم بعد ذلك في نبع دان، ولا يطلق المسلمون على هذا النبع اسم فياله بل ميدان، أي ماء دان، كأن تقول هذه مياه دان، لأن معنى كلمة«مي» في العربية«ماء»، ودان«تل القاضي» هو اسم النبع المتقدم الذكر، ويطلق القديس متى على هذا المكان اسم«مجدل»[متى:١٥/ ٣٩]، واسمه عند القديس مرقص دلمانوثة[مرقص:٨/ ١٠]، وهو ليس بعيداً عن مدينة[أرض] السواد، قرب آبدة أيوب المبارك[الشيخ سعد] وذلك في منطقة الطرخونية، وهذا سوف يجري شرحه بشكل أطول فيما سيأتي.

وبعد دوران طويل من هذين النبعين، يلتقي هذان النبعان أمام باب بانياس، ويشكلان نهر الأردن، ويفصل هذا النهر فيما بين الطرخونية والايطورية، وأخيراً يصب في بحر الجليل فيما بين كفر ناحوم وكورزين، على بعد أربعة فراسخ من مدينة قيدار، القائمة فوق رابية مطلة عليه.

وفي منتصف الطريق فيما بين بانياس وبحر الجليل، يدخل النهر إلى

وادي، حيث يشكل بركة في أثناء الوقت الذي تذوب فيه الثلوج من على جبل لبنان، وتدعى هذه البركة باسم مياه ميروم Merrom حتى هذا اليوم، وهنا تحارب يوشع مع يابين ملك حاصور والملوك الواحد والثلاثين الآخرين، وهزمهم وطاردهم حتى مياه مسرفوت وإلى صيدون العظيمة، وذلك لمسافة تقارب ثمانية فراسخ[يشوع:١١/ ٨]، وتجف هذه المياه كلها تقريباً في أيام الصيف، والشعراء والنباتات التي تنمو هناك كثيفة جداً، حيث مآوي للأسود والدببة وأنواع الحيوانات الضارية الأخرى، مما يجعلها مكاناً للصيد الملكي، ويقع النصف الأول من هذا الوادي في القسم الثاني المتجه نحو الشمال، ويقع النصف الثاني في الثلث التالي، والجزء الثالث، الواقع خلف هذا الوادي، والممتد على طول الضفة الشرقية لنهر الأردن حتى لبنان وذلك على جهة اليسار، وإلى جبل حرمون نحو الجنوب الشرقي، وإلى مدينة بصرى إلى الشرق فوق جبل سنير، المتصل بجبل حرمون، إنه السهل المعروف باسم سهل لبنان، أو منطقة الطرخونية، وذلك حسبما جاء في سفر يشوع، وسبب التسمية بالطرخونية، هو أن هذه المنطقة كلها قليلة المياه الجارية، ولذلك قام سكانها بجمع مياه الأمطار داخل أقنية وصهاريج، وقاموا بعد ذلك بنقلها إلى مكان آخر بوساطة طراخين، أو أنابيب، وذلك من أجل سقاية أنفسهم مع حيواناتهم.

وبما أننا أشرنا إلى جبال: حرمون، ولبنان، وسنير،بات من الضروري هنا، التحدث إليكم بشكل أطول حولهم، لأن بذلك يمكن للمسائل الأخرى أن تفهم، وعلى هذا، عليك أن تعرف أن الجبال التي إلى جانب بركة أرنون، والتي بين عمان ومآب والأموريين، وكذلك جبل جلعاد، القائم في بلاد عوج، ملك بيسان، وجبل سنير، وجبل حرمون، فوق بعل — جاد، وبحر الجليل، وجبل لبنان أن تعرف أن كل هذه الجبال هي جبال متصلة، تحمل أسماء متنوعة في أماكن متعددة، مثلما يمكن

رؤية ذلك في أي يوم في جبال الألب، التي تفصل ألمانيا عن لومبارديا، ومهما يكن الحال، إن جبل جلعاد هو الأعلى بين هذه الجبال جميعها، ويبدو بالفعل كأنه رأسهم جميعاً، وعلى هذا أعتقد أن ما قاله إرميا(٢٢/ ٦):«جلعاد أنت لي. رأس من لبنان»هو صحيح تماماً، وجبل سنير متصل بجبل جلعاد، وهو أيضاً يعرف باسم سعير، لأن عيسو ، أو سعير، قد سكن فيه، وذلك كما سنتحدث عن ذلك فيما بعد، وهو قائم فيما وراء بحر الجليل، وهو من حصة نصف سبط منشا، ويتصل في المكان نفسه بجبل حرمون، الذي يحد منطقة الطرخونية، ويمتد حتى دمشق، التي يتصل قربها بلبنان، بين بانياس ودمشق، وبالنسبة إلى لبنان نفسه، فالذي أعتقده، هو أن أعلى مكان فيه هو حيث يجتاز مدينة بانياس، وهذا المكان أعلى من أي مكان آخر في السلسلة كلها التي تدعى باسم سلسلة لبنان، والسلسلة في هذا المكان تبعد فرسخين عن مدينة صور، ومن الممكن رؤيتها بوضوح من صور، وفي الحقيقة لقد رأيتها أنا نفسي من هناك تشع منيرة في وسط الليل، وطول السلسلة رحلة سفر خمسة أيام، وقمتها طوال تلك المسافة مغطاة بالثلج، وهي تقترب أكثر فأكثر من شاطىء البحر، وهكذا حتى نجدها عند السفح، أي فوق بانياس، تبعد اثني عشر فرسخاً عن البحر، وتبعد عند النهاية، أي قرب عرقة ثلاثة فراسخ عن البحر، والذين يسافرون بحراً من صور إلى طرطوس يرونها طوال الطريق، ودونها تقترب سلسلة لبنان الشرقية من البحر أكثر من أي مكان آخر، وهناك وديان خصبة في كل من لبنان وسلسلة لبنان الشرقية، كلها تفلح بشكل جيد، وهناك وفرة من المروج، والكروم، والحدائق والبساتين، وهناك— بكلمة موجزة— جميع الأشياء الجيدة في العالم، ويقطن فيهما كثير من الاقوام، كما قلنا من قبل، من أمثال: الموارنة والارمن، والاغريق، والنساطرة، واليعاقبة، والجورجيين، الذين هم جميعاً مسيحيين، وهم حسبما يقولون خاضعون جميعاً لكنيسة روما.

هنا بداية القسم الثالث من الأرض المقدسة

٤— يمتد القسم الثالث من عكا إلى الجنوب الشرقي، وعلى ثلاثة فراسخ على هذا الامتداد تقع قلعة جدّين [شرقي عكا]، وهي قائمة على جبل شارون، وكانت هذه القلعة فيما مضى من أملاك طائفة التيوتون، غير أنها مهدمة الآن.

وبعد مسافة ثلاثة فراسخ تقوم قلعة الملك (معليا) في وادٍ، وكانت أيضاً فيما مضى ملكاً للطائفة نفسها، وفيها وفرة من جميع الأشياء الجيدة، وفواكه من أنواع موجودة في تلك المنطقة ونادرة الوجود في مناطق أخرى، وهي الآن بأيدي المسلمين.

وعلى بعد أربعة فراسخ باتجاه مياه ميروم هناك وادي صعننيم، حيث نصب حابر القيني خيمته، وذلك ليس بعيداً عن مدينة حاصور، وكانت زوجته التي اسمها ياعيل هي التي قتلت سيسرا، قائد جيش ملك حاصور، بغرس وتد الخيمة في صدغه، وذلك حسبما نقرأ في سفر القضاة [٤/ ١١—٢٤].

وعلى مسافة فرسخين يقع وادي كابول [جنوب شرقي عكا] الذي يدعوه المسلمون باسم زابول، وأطلق على المنطقة اسم كابول، لإظهار عدم السرور، وذلك حسبما نقرأ في الإصحاح الثالث من سفر الملوك [الأول: ١٢—١٣]

وعلى مسافة فرسخين من هذا المكان تقوم قلعة صفد وكذلك مدينة صفد، وقلعة صفد —بتصوري— هي الأجمل والأكثر حصانة بين جميع القلاع التي رأيتها قط، ذلك أنها قائمة فوق صخرة عالية جداً، وكانت بالعادة ملكاً لفرسان الداوية، غير أنها سقطت بشكل خياني مخجل، فيه إيذاء وألم لجميع الصليبيين، لأنها مادامت بأيدي السلطان، فهو المسيطر على جميع الجليل، أي على جميع ديار أسباط: زبلون، ونفتالي، وآشر،

ويساكر، ومنشّا وجميع البلاد حتى عكا، وصور، وصيدا.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشمال من صفد، وليس بعيداً عن سهل صعننيم تقوم قادش نفتالي، التي جاء منها باراق بن أبينوعم، الذي قاتل ضد سيسرا على جبل الطور، وكانت هذه مدينة ملجأ في ديار سبط نفتالي، وكانت مليئة بجميع الأشياء الجيدة، ويرى في هذا المكان حتى اليوم خرائب واسعة، وأضرحة فائقة الجمال.

ويوجد على بعد فرسخين وراء قلعة صفد، حيث ينزل الانسان من الجبل باتجاه الشرق، وعلى بعد رمية حجر من بحر الجليل، وفوق الطريق الذي يقود نحو الشرق، يوجد درب فوق ذلك الجيل، غالبا ما صعد يسوع المسيح عليه، إلى حيث— كما حدثنا القديس متى— كان يعظ ويقيم القداسات، وهناك أشبع خمسة آلاف انسان من خمسة أرغفة وسمكتين، وإلى هناك اعتاد الصعود والصلاة، بعد ما كان يبعد عنه الحشود، وإلى هناك هرب عندما أرادوا جعله ملكاً، وهنا علم حواريه الصلاة، وهنا أمضى الليل في الصلاة، وحدث عندما كان نازلاً من هذا المكان، أن قام قائد المائة بالتوسل إليه لمساعدة خادمة المشلول، وإليه إلى هناك جاء حشد كبير من المرضى، ومن الذين تلبستهم الشياطين، وهنا لمس المجذوم فشفاه، وهناك وقف وسط الحقل مع حواريه، ويمكن للانسان أن يرى من هذا الجبل بحر الجليل، والايطورية، ومنطقة الطرخونية بعيداً حتى لبنان، وأن يرى كذلك سنير، وحرمون، وبلاد زبلون، ونفتالي، حتى قيدار وجميع منطقة جنسارث حتى دوثان وبيت أوليا، وأماكن أخرى كثيرة، وطول هذا الجبل حوالي رميتي سهم، ورمية حجر أو أكثر عرضه، وهو معشوشب وجميل، وموائم لأعمال الوعظ والتبشير، ومشاهد هناك حتى هذا اليوم، الصخرة التي جلس عليها يسوع المسيح، عندما قام بالوعظ، وأيضاً الأماكن التي جلس فيها الحواريون، (واسم هذا المكان لدى المسيحيين: المائدة).

وعند سفح هذا الجبل، على مقـربة من البحـر، أي على بعـد حـوالي الثلاثين خطوة، هناك نبع لماء الحيـاة، مسيج بجدار، ويطلقون على النبع اسم عرق النيل (عين التبغه)، لأن سمك الـ Coracinus يتكاثر فيها، وهذا السمك ليـس مـوجـوداً في مكـان آخـر، واسم هـذا النبع عند يوسفيـوس «كفـرناحـوم»، لأن السهل كلـه الواقع بين ذلك النبع ونهر الأردن» أي على مسافة قدرها فرسخين، يدعى كفرناحوم.

وعلى بعد حوالي العشرين خطوة من ذلـك النبع، وعلى شاطىء بحر الجليل، يوجد الموضع الذي وقف يسوع عليه على الشاطىء، بعد قيامه، وقال لسبعـة من حواريه كـانوا يصطادون السمك هناك: «أيها الاولاد هل لديكم أي شيء نأكله»؟، وعنـدمـا كنت في هذا المكان في يوم عيـد القـديس أوغسطين [٢٨ـــ آب]، رأيت ثلاث طبعـات لخطوات الرب يسوع قـد طبعت على صخرة، لكن عندمـا عدت إلى هناك ثانيـة في يوم عيد البشارة، وجدت أن المسلمين قد أخذوا الصخرة.

وعلى بعد عشر خطوات من هناك، يوجد الموضع، الذي عندما خرج الحواريون من السفينة، رأوا فيـه نار فحم، وسمكة مـوضـوعة فـوقهـا، وخبزاً، (ويدعى هذا المكان من قبل المسيحيين باسم المائدة).

وعلى بعد مسافة فرسخ واحد نحو الشرق من هذا المكان، توجد كفر ناحوم، التي كانت فيما مضى مدينة جليلة، غير أنها متواضعة جداً الآن، ليس فيهـا سـوى سبعة بيـوت لصيـادي سمك فقـراء، وبشأنها تحققت كلمة الرب يسوع المسيح في قوله: «وأنت ياكفرناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية». [متى ١١/ ٢٣].

وعلى بعـد فـرسخين من ذلك المكـان يدخل نهر الاردن إلى بحـر الجليل، وعلى الشـــاطىء الأقصـى منه، مـن الممكن حتـى الآن رؤية خرائب مـدينة كورزين، وذلك على شـاطىء بحر الجليل. وعلى مسـافة

فرسخ واحد وراء ذلك المكان، أي كورزين، يبدأ صعود جبل سنير— المعروف أيضاً باسم سعير— والمدخل إلى الايطورية.

وبعد هذا بمسافة ثلاثة فراسخ، تقوم قيدار، وهي مدينة جليلة، بنيت في موقع حصين، على الطرف الشرقي لجبل سنير، ويمر من خلال هذه المدينة، الطريق الذي— كما تقدم القول— يساير شاطىء بحر الجليل، ويجري نحو الغرب، وذلك حسبما جاءت الرواية في توبت: ١/ ١، واسم الطريق في اشعيا: «طريق البحر» [اشعيا: ٩/ ١]، لانه يسير على طول شاطىء البحر، وأضاف اشعيا بقوله: «عبر الاردن» لأنه يقود إلى ماوراء الاردن إلى المنطقة التي تدعى آرام، وتدعى أيضاً باسم «جليل الأمم» لأنه عند ذلك المكان، الجليل محدود من قبل الأردن.

وإنه على بعد أربعة فراسخ من هذا المكان، الموضع الذي يصب فيه الأردن في بحر الجليل ويجري حتى قادش نفتالي، وفي منتصف الطريق بينهما يوجد نصف آخر من مياه ميروم، المتقدمة الذكر، ويمر نهر الأردن خلال وسط وادي مياه ميروم، وعندما يخرج من هناك يعطف مجراه أولاً باتجاه الشرق، ثم باتجاه الجنوب، وهكذا يصب في بحر الجليل.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشمال من مصب نهر الأردن، ومدينة كورزين، تقوم مدينة السواد، التي جاء منها بلداد، الوارد ذكره في أيوب باسم السوادي، وعلى مقربة منها، وعلى الجهة الشرقية يوجد ضريح أيوب.

وعلى السهول القريبة من هذه المدينة، وذلك على الجانب المتجه نحو مدينة قيدار، اعتاد المسلمون من بلاد آرام، والجزريون، وأهل حماه، وسورية، ومآب، وعمان، وجميع أجزاء بلاد الشرق، اعتادوا على التجمع هناك حول نبع فياله، المتقدم الذكر، وكانوا يعقدون سوقاً يستمر طوال

أيام الصيف وذلك بسبب جمال المكان ولطافته، وينصبون الخيام ذوات الألوان المتنوعة، التي تقدم مشهداً جميلاً جداً لأهل قيدار لدى النظر إليه من فوق الرابية، وهذه الخيم هي التي ورد ذكرها في نشيد انشاد سليمان [١/ ٥] تحت اسم «خيام قيدار».

وعلى بعد أربعة فراسخ الى الشرق من مدينة كورزين تقوم مدينة قيدار، فوق رابية مرتفعة، ويطلق يوسفيوس عليها اسم جمالا (الحصن)، لأن الجبل الذي تقوم عليه شكله يشبه شكل الجمل، مع تلعة في الوسط تشبه سنامه، وهي تنتهي بانخفاض يشبه شكل ذيله.

واعرف هاهنا— كما سلف بنا القول— أن المنطقة الموجودة قرب الأردن، وعلى الضفة الشرقية منه، والممتدة حتى جبل حرمون وبصرى، تعرف باسم منطقة الطرخونية، أو باسم «سهل لبنان» ويعرف الجانب الغربي من ضفة نهر الاردن باسم جليل الأمم، أو باسم الايطورية، أو كابول، أو «المدن العشرة»، ويمر «طريق البحر» في الوسط هناك، أي الطريق المنطلق من عكا والمار خلال وادي ديار سبط آشر، وهو الذي يعرف الآن باسم وادي القديس جرجس [الخضر في البعنة]، والممتد إلى جبال منطقة الطرخونية، التي عبرها تقوم بلاد آرام، وبناء على هذا جاء في الشرح على قوله: «كان رجل في أرض عوص اسمه أيوب» (أيوب: ١/ ١): الخبر التالي: «ولد آرام— أبو السوريين، الذي اسس مدينة دمشق— عوص، الذي أسس منطقة الطرخونية، وهو الذي حكم فيما بين سورية المجوفة وفلسطين، وهي التي حملت اسمه فعرفت باسم بلاد عوص، وبناء عليه نقول فلان سكن في بلاد عوص، أو هو عوصي البلاد.

وحُكمت هذه المنطقة من قبل الطيطراخ فيليب، ومثلها أيضاً الايطورية، القائمة على هذا الجانب من بلاد الاردن، باتجاه الغرب، والممتدة حتى جبال الصيداويين، والسريان، وأهل عكا، وهي التي

تفصلهـا عن فينيقيـة، فكلتـاهما في هذا الثلث وفي النصف المتقـدم، ويحدها من الشمال لبنـان ومن الشرق نهر الاردن، ومن الجنوب بحـر الجليل، ومن الغرب جبال فينيقية.

هنا بداية القسم الرابع

٥— يبدأ القسم الرابع من عكا، ويمضي نحو الشرق تماماً، ويمر من قرب قلعـة صفد، ويدعها قـائمة على يساره، ومن هناك يسـاير شاطىء بحر الجليل، حيث يمر من أمام مدينة كفر ناحوم، من قبل المكان الذي دعـا فيـه الرب متى من مـوضع استـلام العشـور، ومن الممكن في هذه الأيام رؤية بيت متى، والمكان الذي اعتاد على الجلوس فيه، على الطريق السلطاني، ثم إن الطريق يمضي صـاعـداً جبـال حـرمـون، على الطرف الأقصى من الأردن.

ويوجد في هذا القسم المدن التالية:

والمكان الأول، ويبعد مسـافة خمسـة فراسخ عن عكا، هو عبـارة عن قـرية اسمها القـديس جـرجس (البعنه)، حيث من المعتقد أن القـديس جـرجس قد ولد في هذا المكان، وتقـوم هذه القرية في واد واسع جـداً، وخصب، وجميل بين التـلال والروابي، ويمتـد هـذا الوادي الممتع حتى يصل إلى بحر الجليل، وكان بالعادة تـابعاً لسبط آشر، ويمتد حتى صفد بطول يبلغ حوالي العشرة فراسخ، وما جاء حوله في سفر التكوين: ٤٩، هو صحيح تمامـاً، وذلك بسبب جماله، وذلك قـوله: «آشر خبـزه سمين وهو يعطي لذات ملـوك» (٢٠)، وهذا القـول صحيح تمامـا فيما يتعلق بحصة هذا السبط.

وعلى بعد مسـافة أربعة فـراسخ من هناك، وباتجاه الجنوب، لكن مع بعض الميل نحـو الشرق هناك قـرية نعسون (حـاصـور) العائـدة لسبط

نفتاني في واد، وقد قرأنا عن هذا المكان في سفر توبيت.

وعلى بعد مسافة ثلاثة فراسخ من هناك باتجاه الجنوب، تقوم دوثان، حيث وجد يوسف إخوته، ودوثان قائمة عند سفح جبل بيت أوليا، وعلى بعد فرسخ منه، وهي بلدة فائقة الجمال، مليئة بالكروم، والزيتون، والتين، والمراعي الخصبة.

ومابرح يرى في هذا المكان، في الحقل الجب الذي وضع فيه يوسف من قبل إخوته، ولقد رأيته هناك إلى جانب الطريق الذي يمضي من جلعاد، ويتصل في بيت صيدا بالطريق الذي يذهب من سورية الى مصر، ويصعد هذا الطريق من دوثان الى مقربة جبل بيت أوليا، ثم يعبر مرج ابن عامر، ويمر بجبل الطور على جهة اليسار، وذلك عبر سهل مجيدو، ثم يمضي صعوداً لجبل إفرايم، ويدخل الرملة، ومن هناك إلى غزة فمصر، وعبر هذا الطريق جاء الاسماعيليون الذين اشتروا يوسف.

ونقرأ في سفر الملوك الثاني حول بلدة دوثان هذه، بأن السوريين التفوا حول اليشع هناك، وقادهم هو من هناك الى وسط السامرة، الواقعة على قرابة سفر يوم واحد. واعلم أن دوثان ليس فقط اسم البلدة، بل تحمل المنطقة الاسم نفسه صدوراً عن اسم البلدة، وهذه المنطقة كانت منذ القديم تابعة لهذه البلدة، وهي منطقة منبسطة، مسيجة من كل جانب بهضاب منخفضة، وهي مروية بينابيع، ولذلك فيها مراعي جيدة، صالحة لإطعام المواشي.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من نعسون، وعلى مسافة حوالي الثلاثة فراسخ إلى الشرق من دوثان، توجد مدينة نفتالي(قدس)، التي جاء منها طوبياس، وهي قائمة في مكان حصين، لأنه يوجد على جانبها الغربي جبل فائق الارتفاع، لايمكن لإنسان أن يتسلقه، ويمكن فقط تسلق قطعة صغيرة منه على الجهة الشرقية، وأعتقد أن هذه المدينة كانت

تعرف باسم جتباتا Jotapata ،(جفات جنوب غربي صفد) في أيام استئصال اليهود، وذلك وفقاً ليوسفيوس، ففيها جرى حصار يوسفيوس نفسه من قبل الرومان، ووقع بأيديهم أسيراً، حسبما أخبرنا هو نفسه، واسمها في هذه الأيام سيريم Syrim(ميرون؟)، وهي على بعد أكثر من فرسخ بقليل عن صفد.

وعلى بعد فرسخين من نفتالي، عند زاوية بحر الجليل، حيث يبدأ بالانعطاف من الشمال نحو الجنوب، تمتد بيت صيدا(قرب المينة عند شيخ سياد) التي هي مدينة أندرو، وبطرس، وفيليب، ولا يتجاوز حجمها في هذه الأيام سبعة بيوت، وتقوم على طرف الطريق من سورية إلى مصر، وكان لديها في العصور القديمة مجرى ماء من النهر، دعاه يوسفيوس باسم الأردن الصغير، وهو يصب في بحر الجليل في منتصف الطريق بينها وبين كفرناحوم، وآثار هذا المجرى يمكن رؤيتها حتى في هذا اليوم.

وعلى بعد مسافة فرسخين نحو الجنوب تقوم المجدل التي هي قلعة مريم المجدلية، التي رأيت بيتها ما يزال قائماً هناك، وقد ولجت إلى داخله، وتقوم المجدل على شاطىء البحر، وذلك على بعد حوالي ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من بيت أوليا، ويوجد على جانبيها الغربي والشمالي سهل معشوشب كبير.

واعرف أن هذا القسم الرابع ليس فيه المزيد من البلدات على هذا الطرف من بحر الجليل، غير أنه يوجد على الشاطىء الآخر كثيراً من المدن والقلاع، العائدة لهذا القسم، وذلك في بلاد الجرسانيين الموجودة في مقابل هذا مباشرة.

ففي هذا المكان هناك كثير من المدن، منها على سبيل المثال: جرسه، وجدر، وفحل، والسواد مدينة بلداد السوادي، وتمان التي جاء منها

علفاز التماني، وعدد كبير آخر.

وتقوم الآن بلدة جرسة(خرسة) على شاطىء بحر الجليل، عند سفح جبل سعير، تقريباً في مقابل طبرية، لكن نحو الشمال قليلاً منها، وكانت هذه بالعادة من أملاك نصف سبط منشا، الذي جاءت حصته عبر الأردن.

واعرف بأن هذه البلاد الواقعة عبر بحر الجليل كثيرة الجبال، وذلك كما بدا لي، لكنني لم أكن فيها قط، وقد كانت جزءاً من مملكة باشان، ويعرف شطر منها باسم جبل سعير، لأن عيسو قد سكن هناك، وذلك كما سأخبركم بعد قليل، وعرفت في مكان آخر باسم جبل سنير،لأنه كان هناك، وعرفت أيضاً باسم جبل حرمون، لأنه كان هناك أيضاً، وهكذا عرفت أماكن متعددة وجبال في هذه البلاد بأسماء مختلفة، ومع أن الجميع هو عائد لنصف سبط منشا، لكن نصف سبط منشا لم يتملكها قط، لأن أبناء عيسو سكنوا في هذه الأجزاء، ومازالوا يسكنون حتى هذا اليوم، وهم يعرفون بشكل عام باسم المسلمين، لأنهم لا يختلفون عنهم لا باللغة أو العادات، إلاّ — ربما — في الطريقة التي ينظمون بها شعورهم، وكذلك بالألبسة التي يرتدونها.

لكن مع هذا عليك أن تعرف أن هناك جبل سعير آخر، أو أدوم، وذلك في مقابل قفار البحر الأحمر، حيث نقرأ في سفر التكوين:١٤، كيف هزم كدرلعومر والملوك الآخرون الذين كانوا معه الحوريين في جبل سعير، فوقتها لم يكن هذا الجبل يعرف باسم جبل سعير، لأن عيسو الذي كان يدعى باسم سعير، ومن اسمه نال الجبل اسمه، لم يكن قد ولد بعد، وعلى هذا علينا أن نعتقد بأنه دعي بهذا الاسم مقدماً من قبل، وهكذا نقرأ في سفر التثنية:٢(٤):«أنتم مارون بتخم لإخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير فيخافون منكم، فاحترزوا جداً» وقد قيل هذا أولاً لبني إسرائيل، عندما قاموا خارجين من مصر، وذلك عندما كانوا

في قادش بارينا(القفار)، وكانوا على وشك القدوم إلى جبل سعير، الذي هو قريب من قادش بارينا، المكان الذي كانوا فيه آنذاك، لكن من المؤكد أن بني إسرائيل لم يأتوا قط إلى تخوم جبل سعير هذا، القائم عبر بحر الجليل، لأن بحر الجليل هذا متصل بدمشق، إلى حيث لم يصلوا مطلقاً.

وجبل سعير الآخر، الذي قرأنا عنه أنه متصل ببريه فاران، هو الجبل الذي تجول حوله بنو إسرائيل لأيام كثيرة، لأن الرب حرم عليهم الدخول إلى هناك، ونقرأ عن جبل سعير هذا في سفر التثنية:٢(١٢):«وفي سعير سكنوا قبلاً».

وفي جبل سعير هذا الذي هو قريب من بحر الجليل، ومن جبل جلعاد، كان يسكن عيسو في الوقت الذي عاد فيه يعقوب من بلاد الرافدين إلى سورية، فنحن نقرأ في سفر التكوين:٣٦، بأن عيسو الذي كان بلا شك ساكناً مع أبيه في بير السبع، أخذ كل ما امتلكه، وذهب للسكنى في منطقة أخرى، وهذا مما لا شك فيه، وقد فصل نفسه عن أخاه، ولقد التقى بيعقوب، لدى عودته من بلاد الرافدين عند مخاضة جدول يبوق، المتصل بتلك البلاد باتجاه الجنوب، ونقرأ في سفر التكوين:٣٢/ ٣١،أنه:«عندما عبر يعقوب فنيئيل أشرقت له الشمس»،ونقرأ أيضاً بعد:«ورفع يعقوب عينه ونظر وإذا عيسو مقبل»[٣٣/ ١]الخ، وهذا المكان الذي اسمه فنيئيل مرئي حتى هذا اليوم، ومعروف بالاسم نفسه، ليس بعيداً عن سكوت، في المنطقة الشرقية عبر الأردن، فإلى هناك — كما قرأنا — جاء يعقوب فيما بعد مباشرة، وهذا المكان نفسه موجود عند سفح جبل سعير المتصل ببحر الجليل، وأما بالنسبة لجبل سعير، الذي سكن فيه الحوريون قديماً، والذي فيه يسكن أبناء عيسو الآن، هو بعيد سفر عدة أيام عن هذا المكان، ولم يكن بإمكان عيسو القدوم بشكل مفاجيء لرؤية أخاه، لأنه

بعيد جداً، وواقع وراء البحر الميت، وعلى مسافة سفر خمسة أيام منه، ومرد وجود هذه الأسباط المختلفة من أبناء عيسو، والأماكن المختلفة التي سكنوا فيها، مرد هذا الأمر كما أعتقد، وسببه هو أن عيسو امتلك عدة زوجات، وعلى هذا سكن الأولاد الذين أنجبهم من محلة ابنه إسماعيل وأخت نبايوت[تكوين:٢٨/ ٩] في جبل سعير الذي هو قريب من برية فاران، وذلك في المنطقة نفسها التي سكن فيها ختنه، الذي نقرأ عنه في سفر التكوين:٢١، بأنه صار رامياً، وسكن في برية فاران، فهناك — جاءنا الخبر — بأنه سكن مع ذريته، هذا وتزوج عيسو زوجات أخرى إلى جانب زوجاته الأول، كان من بينهن:أهو ليبامة ابنة عني بنت صبعون الحوي، وكان هذا الحوي ابن كنعان، ومما لا شك فيه أنه سكن في منطقة بيسان في الجليل، على مقربة من جبال جلبوع، ليس بعيداً عن بحر الجليل، وعلى مقربة من هذا المكان نفسه هناك جبل سعير آخر، سكن فيه عيسو، في الوقت الذي كان يعقوب راجعاً فيه من بلاد الرافدين، وعلى هذا كان من السهل جداً عليه لقاء أخيه هناك، وذلك حسبما يشير النص، لأننا نقرأ في سفر التكوين:٣٢،أنه بعدما ترك لابان، أخذ طريقه وقابل ملائكة الرب، وقال:«هذا جيش الرب»، وأطلق على ذلك المكان اسم محنايم، أي«المحلة»،(هذا المكان موجود في هذا اليوم عند سفح جبل جلعاد، في ديار سبط جاد)، ومن هناك بعث برسل إلى أخيه، وقد عادوا إليه إلى هناك، وبناء عليه — كما قرأنا بعد — عزل جانباً بعضاً من قطعانه هدية إلى أخيه عيسو، وقد بعث بهذه الهدية مع رسله، وهكذا قرأنا:«فاجتازت الهدية قدامه. وأما هو فبات تلك الليلة في المحلة.(أي في محنايم) ثم قام في تلك الليلة وعبر مخاضة يبوق،(التي ما تزال مرئية هناك) وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر»إلخ، ونتابع القراءة بأن«يعقوب دعا ذلك المكان باسم فنيئيل»، وما يزال هذا المكان قائماً حتى هذا اليوم على ضفتي مخاضة جدول يبوق، أيضاً في ديار سبط جاد،«وأشرقت له الشمس إذ عبر فنيئيل»

وبعد هذا«رفع يعقوب عينيه ونظر وإذا عيسو مقبل»الخ، وعلى هذا إننا نعرف الأماكن التي جاء عيسو إليه بها، وكلها على مقربة من جبل سعير، القائم وراء بحر الجليل.

وهناك أيضاً جبل سعير ثالث في منطقة أشدود وعسقلان، التي وقعت حصة لسبط يهوذا وقت اقتسام البلاد، لكن ما هو السبب في تسميته كذلك، إنني لا أتذكر أنني قرأت حول ذلك، غير أن السكان هناك يدعون باسم:آدوميين، مثلما دعي أبناء عيسو الآخرين باسم الأدوميين اشتقاقاً من اسم أدوم، ولهذا السبب أطلق على أنتيباتر وابنه هيرود العسقلاني اسم الأدوميين.

ويكفي ما قيل عن هذا الموضوع.

ويوجد هذا الجبل في حصة جاد في جبل جلعاد، في مقابل المكان الذي يخرج فيه نهر الأردن متدفقاً من بحر الجليل، وذلك ليس بعيداً عن جبل جلبوع، على مقربة من مدينة بيسان، ومن هناك نزولاً من الضفة الشرقية للأردن، توجد ديار سبطين ونصف سبط، وهي تمتد نزولاً حتى مراعي أرض مُآب عند سفح جبل عبريم في شطيم في مقابل أريحا، وإذا ما تابعنا السير نحو الجنوب على طول ضفة الأردن نفسها في بلاد مآب، نصل حتى البتراء في القفار، التي تعرف الآن باسم الكرك، ويأتي بعد هذا جزء من بلاد عمون، وذلك مسايرة لجميع طول البحر الميت، مع الاحاطة بنهايته الجنوبية، وصولا حتى جبل سعير، المتصل ببرية فاران، قرب قادش بارينا، حيث هناك على الطرف قفار سيناء والبحر الأحمر.

هنا بداية القسم الثاني من الربع الشرقي

٦ — في القسم الثاني من الربع الشرقي الذي يبدأ من عكا نحو الجنوب الشرقي، عندما يقطع الانسان أربعة فراسخ يصل إلى قانا

الجليل، حيث حوّل الرب الماء إلى نبيذ، وهذا المكان مرئي حتى هذا اليوم، حيث تقوم أجران الماء الستة، وغرفة الطعام حيث كانت المواد فيها.

هذا وإن جميع هذه الأماكن، مثلها في ذلك مثل جميع الأماكن الأخرى التي صنع فيها الرب أي عمل، هي موجودة تحت الأرض، ويمضي الانسان إليها بوساطة عدد كبير من الدرجات حيث يفضي إلى قبو، وهذا هو الوضع في موضع البشارة، والمهد، وفي قانا الجليل هذه، وفي أماكن أخرى كثيرة،كلها مشاهدة تحت الأرض، والسبب الوحيد الذي يمكنني أن أجده لهذا، مرده إلى التدمير المتتابع للكنائس التي بنيت فوق هذه المواضع، فقد سترت الخرائب بالأتربة التي تراكمت فوقها، وبعدما جرت تسوية الخرائب بلا عناية، تمت إقامة أبنية جديدة فوقها، وبناء عليه بات على المسيحيين الذين تشوقوا لزيارة هذه الأماكن، ورغبوا بالوصول إلى البقعة نفسها التي شهدت وقوع الحدث، أن يقوموا بأعمال تنظيف الأماكن هذه، وإقامة سلالم تقود نزولاً إليها، ولهذا السبب بدت غالبية هذه الأماكن على شكل أقبية، وإلى الشمال من قانا الجليل هناك جبل مرتفع وطويل، وعلى سفوح هذا الجبل تقوم هذه البلدة، وفي أسفل الجبل، يوجد على الجانب الجنوبي سهل جميل جداً، أطلق عليه يوسفيوس اسم سهل الكرمل(وادي الملك)، وهو يمتد بعيداً حتى الصفورية، وهو فائق الخصوبة والجمال.

وعلى بعد حوالي الفرسخين إلى الجنوب من قانا الجليل، وذلك على الطريق من الصفورية إلى طبرية، هناك قرية اسمها رومه(شمال المشهد) فيها يقال جرى دفن النبي يونه، وتقف هذه القرية تحت الجبل المقبل من الناصرة، ويحدها الوادي المتقدم ذكره، أي وادي الكرمل من الجانب الجنوبي.

وعلى بعد حوالي الفرسخ إلى الشرق من رومه هناك قرية واسعة،

يبدو أنها دعيت فيما مضى آبل — محولة، حيث نقرأ في سفر يودث بأن هولوفرنس قد قدم إليها عندما كان متوجهاً إلى بيت أوليا، ولابد أنه فعل ذلك، فبسبب وعورة تلك الأماكن لم يكن متوفراً طريق آخر هناك، ومن المعتقد أن هذه القرية قد كانت موضع مسقط رأس النبي إيليا، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول، وهي قائمة في المنطقة التي كان اسمها دوثان، وذلك على بعد نصف فرسخ إلى الغرب من تلك القرية، ويوجد فيها عدد كبير من الأعمدة الرخامية، وخرائب كثيرة، وكلها يدلل على أنها كانت فيما مضى مدينة رائعة، وهي قائمة فوق مكان مرتفع وحصين.

وعلى بعد فرسخ واحد من آبل — محولة يقوم جبل بيت أوليا، حيث قتلت يودث هولوفرنس، ومن الممكن رؤية هذا الجبل من خلال الجليل كله تقريباً، وهو جبل فائق الجمال وحصين، ومازال عليه هناك كثيراً من البيوت وكثيراً من الخرائب، وعند نهاية هذا الجبل هناك قرية قد بنيت لحماية الجبل،وهناك آثار معسكر هولوفرنس موجودة حتى هذا اليوم في حقل قرب دوثان، وهناك أيضاً الوادي الذي غسلت فيه يودث نفسها، وهو الذي عبرته في طريق عودتها إلى بيت أوليا، وقد تفحصت هذا كله بقدر ما أمكنني من دقة، لأنني أمضيت في دوثان ليلة واحدة.

وعلى بعد فرسخين طويلين إلى الجنوب الشرقي من بيت أوليا، وذلك على شاطىء بحر الجليل، هناك مدينة طبرية الجليل الرائعة،التي من اسمها عرفت البحيرة وأطلق عليها اسمها أحياناً، وكانت هذه المدينة تعرف في العصور القديمة باسم جنسارث، ولهذا السبب ومن اسمها أطلق على هذا البحر اسم بحر جنسارث، لكنها مع الأيام، استولى عليها هيرود، طيطراخ الجليل، وأطلق عليها اسم طبرية تشريفاً للقيصر طايبيروس، وهي مدينة طويلة جداً، وقائمة فوق طرف طويل

من شاطىء البحـر، وعند نهايتها الجنوبية هناك حمامات طبيـة، وخرائب كثيرة، وتنمو هناك أشجار نخل عظيمـة، وكروم عنب، وبساتين زيتون، والتربة هناك خصبة جداً.

واعلم أن المنطقـة التي تعـرف باسم منطقـة المدن العشرة تنتهي عند مـدينة طبرية هذه، وقـد كتب اللورد جيمس دي فيتري، الذي كـان بطريرك القـدس، ونائب كـرسي رومـا، في كتـابه الذي كتبـه حـول الاستيـلاء على هذه المنطقة يقـول مايلي:«إن حـدود أونهايات بلاد المدن العشرة موجودة على البحـر في الشرق، وصيدا الكبرى في الغرب، وبناء عليـه كان هذا هو عـرضهـا، أما طولها فيمتـد من مـدينة طبرية، وجميع الشاطىء الشمالي لبحـر الجليل حتى دمشق، وعرفت باسم المدن العشرة صدوراً عن المدن الرئيسية الموجودة هناك، وهي:طبرية،وصفد،وقادش، ونفتـالي، وحـاصـورة، وقيسـارية فيليب، وكفـر نـاحـوم(التي يدعـوها يوسفيـوس باسم جوليـا) ولوتاباتا، وبيت صيـدا، وكورزين، وبيسـان، التي كان اسمهـا أيضاً سكيزوبولس، هذا وهناك مـدن أخرى كثيرة إلى جانب هذه المدن.

ولنلاحظ على كل حال، أن هذه البلاد قـد عرفت بأسماء مختلفة حتى هذا اليـوم، وكما تقـدم القول عـرفت أحيـاناً باسم الايطورية، وأحيـاناً أخـرى باسم بلاد الراحوب، وأحيـاناً باسم كـابول، وهي كلها واحـد، والمنطقة نفسهـا، ومع أنها دعيت بأسماء عديدة ومتنوعـة، هي لاتتجاوز رحلة سفـر يوم واحـد في الطول، أو في العـرض، كما أنني لاأظن أنها طويلة كثيراً في عـرضهـا، لكن فيما وراء بلاد صيـدا، والجبـال التي بيننا وبين المسلمين الذين يعرفون باسم البقاعية، وأيضاً الذين يسكنون حول ممر الكلب، تقوم الايطورية الأصيلة، وذلك في واد اسمـه وادي البقاع، وبسبب طوله، نجـده يمتد حتى سفح جبـل لبنان، ويعرف باسم غـابة لبنان.

وفي عـودة مـن طبرية، وعلى مسـافـة ستـة فـراسخ نحـو الغـرب، وفرسخين إلى جنوب قانا الجليل توجد صفورية، وهي بلدة جميلة جداً مع قلعة مـوجودة فـوقها، ويقال بأن يواكيم، والد العـذراء المباركـة قد ولد هناك، وهي قائمة في ديار سبط آشر، على مقربة من وادي الكرمل.

وعلى مسـافة فـرسخين إلى الجنوب من الصفـورية، أو بالحري باتجاه الشرق، توجد الناصرة، التي هي المدينة المباركة للجليل، حيث كان فيها فـرع من أبناء يسي، فبعدمـا تلقت التحية من الروح القـدس، حملت في رحمهـا المبارك يسـوعـاً المسيح، وتبعد الناصرة سبعـة فـراسخ عن عكا، وفيهـا مـايزال مـوجـوداً المكان حيث جلب الملاك جبرائيل بشـارة الخلاص إلى العـذراء المباركـة قائـلاً:«حييت أيتها المليئة بالنعمـة، الرب معك، بوركـت أنت من بين النسـاء»، وقـد رتّلتُ هناك عـدداً من القـداسـات، وكـان بعضهـا حتى في اليـوم نفسـه، أعني يوم البشـارة المقـدسـة، وذلك عندمـا صار الرب جسـداً، ليبـارك اسم الرب يسـوع المسيح، إلى الأبد، وإلى الأبد.

وهناك ثلاثة مذابح في البيعة، التي نحتت من قلب الصخر، مثلها في ذلك مثل مكان الـولادة، والآلام والقيـامـة، وفي القـديـم جـرى نحت الجزء الأكبر من الناصرة من الصخـر، وهذا مـا يمكن رؤيتـه في هذا اليوم، ومـايزال حتى هذا اليوم الكنيس قائم هناك، بعدمـا جرى تحويله الآن إلى كنيسـة، وهو الذي عندمـا كان يسـوع يعلم فيـه، قرأ من سفـر إشعيـا النبي، وذلك لدى مناولتـه إياه، والذي قـرأه هو:«روح الرب فوقـي، لأن الرب مسحني»الخ، فضلاً عن هذا يوجـد عند نهاية المدينة، في كنيسة جبرائيل، جب، هو مبجل من قبل السكان، حيث يقال: غالباً ما قام الطفل يسوع بنضح الماء منه عندما كان يخدم أمه.

وعلى بعـد مسافـة أربع رميـات سهم، إلى الجنوب من المدينة يوجـد المكان المعروف باسم«قفزة الرب»، وذلك حيث أرادوا رمي يسوع نحو

الأسفل، غير أنه مـرّ من بين أيديهم، وشـوهد فجـأة — حسبما مـرئي هناك — على طرف الجبل، على مسافة رمية سهم، ومن الممكن أن يرى الانسان هناك على الصخرة طبعة مـلامحه وملابسه، ويمكن للانسان أن يرى من ذلك الجبل، جبل الطور، ورابيـة حرمـون الصغيرة(جبل النبي ضاحي)، وقـرى:عين دور، ونين، ويزرعيل، ورؤية كل مـا حواه سهل ابن عامر.

وعلى بعـد فـرسخين من النـاصرة، باتجاه الشرق، هناك جبل الطور، حيث تحول شكل الـرب، وهناك من الممكن حتى الآن رؤيـة خـرائب ثلاث بيع، أو مزارات، كانت قد بنيت تنفيذاً لرغبة بطرس، وفضلاً عن هذا هناك خـرائب على غاية مـن العظمة هناك، تشمل أمـاكن، وأبراج، وأبنية عادية، هي الآن أماكن مأوى للأسود وللحيونات الضارية، وعلى هذا يتـوفـر هناك مكـان للصيـد الملكي، والجبـل صعب التسلق، وهو شاهق الارتفاع، وهو موائم لبناء قلعة عليه.

ويوجد على سفحه، على الجانب الجنوبي، هناك مقابل قرية عين دور، وذلك إلى جانب الطـريق الذي يقود من سوريـة إلى مصر، يوجد المكان الذي يقـال بأن مليكصـادق قـابل فيـه إبراهيم، وذلك لدى عـودته من القتال ضد الملوك الأربعة قرب دمشـق، وعند سفحه، في الجهة الغربية، في مـواجهـة الناصرة، هناك بيعـة بنيـت في المكان الذي قـال الرب فيـه لحواريـيـه، لدى نزوله من الجبل:«لاتخبروا أحـداً بالذي رأيتمـوه»، ومن سفحـه في الشرق يجري جدول قيشـون، وذلك حيث قـاتل باراق ضـد سيسرا، وغلبه، وأرغمه على الفرار، ويتشكل هذا الجدول من مياه جبلي الطور، وحـرمـون، وتجري هذه الميـاة باتجاه بحـر الجليل، وتصب على مقـربة من قلعـة كـوكب الهوا(بلفيـور Belvior)، التي هي من ممتلكات فرسان مشفى القديس يوحنا.

وعلى مسافـة فرسخ واحـد إلى الشرق من جبل الطور، توجد قـرية

عين دور، القائمة على هضبة حرمون الصغيرة(كذا)، وهذه الحرمونية ليست جبلاً مستقلاً بذاته، بل كتلة مرتفعة من الأرض، نازلة من جبل حرمون، وهي باتجاه جبل الطور وملتصقة به، وفوقها تقوم قرية عين دور، حيث نقرأ في المزمور:«بادوا في عين دور»[مزمور:٨٣/ ١٠]، وسكنت في هذه القرية المرأة التي كانت صاحبة جان، والتي لدى حادثة شاؤول أصعدت صموئيل، وذلك حسبما نقرأ في سفر صموئيل[الأول:٢٨/ ٧ — ١٨]، وصموئيل يرقد الآن مدفوناً في راماثيم — زوفيم، الموجودة على مسافة سفر يومين من ذلك المكان.

وعلى بعد فرسخين من الناصرة، وأكثر من فرسخ واحد عن جبل الطور، توجد رابية حرمون الصغيرة، الموجود على طرفها الشمالي مدينة نين، التي أقام الرب أمام بابها ابن الأرملة من الموت.

ويبلغ طول هذا الجبل وامتداده أربعة فراسخ في مقابل بحر الجليل، وينتهي ليس بعيداً عن المكان الذي يتدفق فيه نهر الأردن خارجاً من بحر الجليل.

هنا بداية القسم الثالث من الربع الثالث

٧ — في القسم الثالث من الربع الثالث، الذي يسير باتجاه الجنوب، إن المكان الذي يصادفه الانسان بعد مغادرته لعكا، هو الجزء الأول من جبل الكرمل، وذلك على بعد مسافة أربعة فراسخ من عكا، وهنا يوجد المكان الذي قتل فيه النبي إيليا كهنة بعل، عند جدول قيشون، وذلك حسبما نقرأ في سفر الملوك الأول:١٨/ ٤٠، وعلى بعد مسافة قصيرة يصب جدول قدرون في البحر المتوسط، وذلك على مسافة فرسخ واحد عن مدينة حيفا، إنما على بعد حوالي الثلاثة فراسخ عن مدينة عكا.

وفيما يتعلق بجدول قيشون هذا، يلاحظ أنه وإن بدا في الحقيقة أنه جدول واحد، وهكذا جرى الكلام عنه أنه واحد، مع ذلك ينبغي عدّه

مـزدوجـاً، لأنه يجري باتجاهين، فـالفـرع الأول منه يجري باتجاه الشرق ليصب في بحـر الجليل، ويجري الفـرع الآخـر باتجاه الغـرب ليصب في البحر المتـوسط، ويقوم هذا المجرى المزدوج من جبلي الطور وحـرمون، لأنهما ليسـا بعيـدان عن بعضهما بعضـاً، وكل واحـد منهما له رابيـة قـد أرسلهـا باتجاه الآخـر، وعلى هذا بدا الجبلان وكـأنهما متصلان أحـدهما بالآخـر عند السفح، والرابية هي أعلى من جـانب جبل حرمـون، وهي تعرف باسم الحرمـونية، وقـد تقدمت الاشارة إليهـا، فعليها تقـوم قرية عين دور، وتعيق هذه الرابيـة مياه الأمطار التي تتساقـط على كل واحد من الجبلين، والتي تجري نـازلة بالاتجاه نفســه، لكن شطراً منهــا يجري باتجاه الشرق، ويصب في بحـر الجليل، ليـس بعيـداً عن مـدينة بيسـان، وعند جـدول قيشون هذا تحارب باراق مع سيسرا، وذلك حسبما قـرأنا في سفر القضاة: O، ويجري الشطر الآخر باتجاه الغرب ليصب في البحر المتوسط، وعند فرع قيشـون هذا قتل إيليا كهنة بعل، وذلك حسبما قرأنا في سفـر الملوك الأول:١٨/ ٤٠، وهو الشطـر الذي يجري باتجاه الغـرب وترفده مياه من جبل عفريم والمناطق المجاورة له في السامرة، ومن جميع بقاع سهل ابن عامر، وجبل قابيل، ومجيدو،[في عزبوبة قرب التعنه].

وعلى بعـد ثلاثة فـراسخ من المكـان الذي قتل فيـه كهنة بعل، تقـوم القلعـة المبنيـة فـوق جبل قـابيـل، واسمهـا تل كمـون، وفي نهاية جبل الكرمل تماماً، هنـاك المكان الذي قتل فيه لامخ قـابيل حين رماه بسهم، وذلك حسبما جـاء الخبر في سفـر التكـوين:٤/ ٢٣، قـولـه:«فإني قتلت رجلاً لجرحي».

وعلى بعـد ثلاثة فـراسخ إلى الجنوب من جبل قابيـل، توجد مجيـدو، التي اسمها في هذه الأيام سبورب Suburbe ، فهناك مات أحازيا ملك يهوذا، الذي أصـابه ياهو ملك إسرائيل بوسـاطة سهم، ورمـاه في حصـة حقل نابوت اليزرعيلي، وفي مجيـدو هذه نفسها جـرى قتل يوشع

ملك يهوذا من قبل فرعون ملك مصر، عندما كان زاحفاً نحو نهر الفرات.

واعرف هنا أن حقل مجيدو، وسهل ابن عامر، وسهل الجليل هم واحد والشيء نفسه، وكل هذه الأسماء قد زالت من الوجود، وهي الآن تعرف باسم سهل الفابا(الفولة) الذي يقوم على بعد ثلاث رميات سهم عن مدينة أفيق، ولكن في الحقيقة الكاملة أن هذا هو سهل الجليل الذي يحده من الشرق بحر الجليل والأردن، ومن الجنوب جبل عفريم والسامرة، ومن الغرب جزئياً من قبل جبل الكرمل، ومن الشمال بحر فينيقيا ولبنان، ويبدو أن طول هذا السهل هو عشرة فراسخ، وعرضه ستة فراسخ أو أكثر،وهو في بعض الأماكن خصب جداً بالقمح، والزيت، والخمرة، ومليء بجميع الأشياء الجيدة في العالم، وبناء عليه لا أعتقد أنني رأيت قط أرضاً أفضل، لولا أن مساوئنا وذنوبنا حالت دون زراعتها من قبل الصليبيين.

وعلى بعد أكثر من فرسخين إلى الشرق من جبل قابيل توجد قرية المزرعة(قرب الفولة) وهي قائمة على شاطىء جدول قيشون، وذلك على بعد فرسخ واحد من سفح جبل حرمون.

وعلى بعد فرسخ إلى الجنوب من المزرعة تقوم قلعة اسمها قلعة الفولة، وعلى الطرف الغربي وعلى بعد ثلاث رميات سهم، وذلك على جهة اليمين من طريق يزرعيل، من الممكن رؤية خرائب مدينة أفيق، فهناك قاتل السوريون ضد أخاب، ملك إسرائيل، وقالوا في ذلك الحين:«إن آلهتهم آلهة جبال.... وإذا حاربناهم في السهل فإننا نقوى عليهم»(الملوك الأول:٢٠/ ٢٣).

وعلى بعد فرسخ إلى الشرق من أفيق، وذلك على الجهة اليسارية من الطريق إلى يزرعيل، وعلى الجهة الجنوبية من جبل حرمون، يمكن

للانسان أن يرى مدينة شونيم(سولم إلى الشرق من الفولة)، فإلى هناك غالباً ما ذهب إيليا عندما كان على طريقه من الكرمل إلى الجلجال، أو الأردن، لأن هذا الطريق كان الطريق الأقل وعورة وارتفاعاً بالنسبة له عندما كان يريد الذهاب إلى أريحا، حيث أقام مع أبناء الأنبياء، وكان يذهب من الكرمل، أي أن تقول من خلال شونيم إلى بيسان، ومن هناك على طول سهل الأردن إلى الجلجال، ولهذا نقرأ في سفر الملوك الثاني:٤/ ٨، كيف أنه احتاج كلما ذهب إلى الأردن إلى المرور بشونيم، ولهذا اعتاد على الاقامة مع المرأة الشونيمية، وحدث أنه من هذه المدينة نفسها، جاءت إليه هذه المرأة ذاتها عندما توفي ولدها، جاءت إليه إلى الكرمل، التي تبعد مسافة أربعة فراسخ عن ذلك المكان، وقام إيليا بإقامة ولدها من الموت، وهنا نصب الفلسطينيون معسكرهم عندما جاء شاؤول من جلبوع، ومن مدينة شونيم هذه جاءت أبيشاغ Ab-ishag الشونيمية التي رعت الملك داوود العجوز، واحتضنته ومددته على صدرها.

وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من شونيم، أو بالحري إلى الجنوب الشرقي، تقوم مدينة بيسان، الموجودة بين جبل جلبوع والأردن، إنما على بعد نصف فرسخ عن الأردن، فعلى أسوارها علق الفلسطينيون جثث شاؤول وأولاده بعدما قتلوهم على جبل جلبوع، وكانت بيسان هذه تعرف من قبل باسم سكيزوبولس، وذلك حسبما أخبرنا يوسفيوس، لكن الناس جميعاً يدعونها الآن باسم بيسان، وهي موقع فائق الجمال والبهاء.

وفوقها، على الجانب الغربي، يقوم جبل جلبوع، الذي يمتد حتى يزرعيل، وذلك على بعد فرسخين نحو الغرب.

وعلى بعد فرسخين إلى الغرب من بيسان هناك ينابيع، ونبع عظيم على فرسخين فوق بيسان، وهذا هو«النبع الموجود في يزرعيل»[عين

جـــالوت دون يزرعيل إلى الشرق]، الـذي ورد ذكـره في صمـــوئيل الأول:٢٩/ ١، حيث ضرب الفلسطينيـــون مخيمهم، عندمـا كـانوا في جلبوع، بين ذلك النبع وبيسان.

وعلى مسافـة قريبـة، هي حوالي رميتي سهم، عن ذلك النبـع، توجد مـدينة يزرعيل(زرعين)، وهي قائمـة فوق رابيـة مرتفعـة بعض الشيء، وقـد كـانت فيما مضى إحـدى المدن الملكيـة في إسرائيل، لكن في هذه الأيام ليس فيهـا أكثر من ثلاثين بيتـاً، واسمهـا الآن الذي تدعى به هو زرعين، وهي قـائمـة عند سفح جبل جلبـوع، على الجهة الغـربيـة منه، وتبعـد عن مدينة شـونيم فرسخين قصيرين، وشـونيم قائمـة إلى الشمال منها، وذلك على الطرف الجنوبي من جبل حرمون.

وهذان الجبلان — أعني جبل حـرمون وجبل جلبوع — متـوضعان بشكل جاء فيه موقع جبل جلبوع إلى الجنوب منها، وحرمون إلى الشمال منها، مـع وجود فـراغ بينهما قدره فرسخين قصـار، وهما يمتدان طـولياً من الشرق إلى الغـرب، وكـلاهما ينتهي في الشرق عند الأردن، وطولهما فرسخان أو أكثر.

وفيما بينهما جرت معارك كبيرة، فهنا قاتل جدعون ضد مدين، وقاتل شـاؤول ضد الفلسطينيين، وأخـاب ضـد السوريين، وفي الأيام الحاليـة قاتل التتار ضد المسلمين هناك.

[وليلاحظ فيما يتعلق بجبل حـرمون هذا، أن هناك جبـلاً آخر يحمل الاسم نفسـه، يقع وراء الطرخـونيـة، وعلى مقـربة من جبل سنير، وهو أعظم بكثير وأعلى من هذا الجبل، وفي كثير مـن الأمـاكن من الكتـابات المقدسة، الإشارة إلى حرمون هذا وليس إلى حرمون[الصغير] ذاك.

وفي السهل فيما بين هـذين الجبلين يبـــدأ الوادي الـذي يعـــرف باسـم«الوادي المشرق»[مـــوره أو وادي يزرعيل]، وذلك بسبـب جماله

وخصبه، وهو يمتد من ذلك المكان مسايراً نهر الأردن نزولاً حتى البحر الميت، وقبل أن يدمر الرب سدوم وعموره، كان هذا الوادي المشرق«مروياً بشكل جيد في كل مكان، وكأنه بستان الرب، وذلك مثل أرض مصر»، فهذا ما نقرأه في سفر التكوين:١٣/ ١٠.

ومن يزرعيل هناك مشهد جميل يغطي جميع الجليل، حتى الكرمل، وجبال فينيقية، وجبل الطور، وجبل جلعاد، والمناطق الواقعة عبر الأردن، وجميع جبل إفرايم حتى الكرمل.

ويساير الطريق من جبل جلعاد إلى يزرعيل، الطرف الجنوبي من جبل جلبوع، وذلك من الأردن، ويمر عبر عين نون وساليم[يوحنا:٣/ ٢٣]، حيث أجرى يوحنا التعميد، وحدث أيضاً أنه عبر هذا الطريق جاء ياهو من راموت جلعاد(الملوك الثاني:٩/ ١٧)، عندما قال الرقيب:«إني أرى جماعة»الخ، وليس صحيحاً ما يقوله بعضهم من أنه لا الندى ولا المطر يتساقط على جبال جلبوع، لأنني عندما كنت هناك في يوم عيد القديس مارتن[١١— تشرين ثاني] تساقطت الأمطار حتى تبللت ثيابي كلها ووصل البلل إلى الجسد، فضلاً عن هذا امتلأ الوادي بمياه تلك الأمطار، ومع هذا صحيح هناك بعض الأماكن في هذه الجبال هي صخرية، وجافة، وجرداء، مثل بقية جبال اسرائيل.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من يزرعيل توجد عين جنيم(جنين)، وهي بلدة كانت فيما مضى مسورة، لكن أسوارها قد تداعت، وهي قائمة عند سفح جبل إفرايم، وتنتهي عند هذه البلدة منطقة الجليل، وتبدأ منطقة السامرة، وتقع جنين على بعد حوالي السبعة فراسخ إلى الغرب من الأردن.

وتُحد هذه المنطقة من الجنوب ببلاد تمّون[إلى الشمال — الشرقي من شكيم]، التي فيها جبال مرتفعة جداً.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من مدينة جنين تقوم مدينة سبسطية، التي عرفت فيما مضى باسم السامرة، وذلك عندما كانت عاصمة لمملكة الأسباط العشرة، التي عرفت باسم إسرائيل، وجعلتها ذنوبها لاتمتلك ما يساوي مقدار بيت واحد، لكن هناك كنيستان بنيتا على شرف القديس يوحنا المعمدان، ولقد قام المسلمون بتحويل واحدة من هاتين الكنيستين إلى مسجد، وكانت تلك التي كانت هي الكنيسة الرئيسية، وكانت فيما مضى كاتدرائية الأسقف، وفعلوا هذا بشكل خاص بضريح يوحنا المعمدان نفسه، الذي كان معمولاً من الرخام، ويشبه ضريح الرب، ذلك أنه رقد مدفوناً هناك بين إيليا وعوبيدا، وتقوم هذه الكنيسة على طرف الجبل، في المكان الذي ينحدر الانسان منه وينزل، ويقدر المسلمون القديس يوحنا المعمدان تقديراً عظيماً، ومكانته لديهم هي التالية لمكانة المسيح والعذراء المباركة، وهم يولونه اهتماماً عظيماً، وهم عن حق يعلنون بأن المسيح هو كلمة الله، لكنهم يقولون إنه ليس رباً، وهم يقولون بأن العذراء المباركة قد حملت من روح القدس، وقد حملت به كعذراء وبقيت عذراء، وهم يقولون بأن يحيى كان نبياً عظيماً وفائق القداسة، ويقولون أيضاً بأن محمداً(ﷺ) كان رسول الله، وقد أرسل من قبله لهم فقط،وقد قرأت شخصياً هذا في القرآن [الكريم] الذي هو كتاب شريعتهم.

وتقف الكنيسة الثانية على حافة الرابية، وذلك حيث قام قصر الملك فيما مضى، ويقطن هناك رهبان إغريق، ومسيحيون، استقبلوني بلطف، وأعطوني طعاماً، وأراني أولئك الإغريق أنفسهم في تلك الكنيسة، المكان الذي قالوا بأن يوحنا قد سجن فيه، ثم قتل فيه صبراً، وهذا ما بينت أنه خطأ جسيم، لأن المؤرخين، ويوسفيوس، وحكايات القديسين، وكاتب التواريخ، والتاريخ اللاهوتي، كلهم مجمعون على القول بأنه قتل صبراً في مخرونتا Macherunta [مخور شرقي البحر الميت]، التي

تعرف الآن باسم هيلون Haylon ، عبر الأردن، زيادة على هذا، كان هيرود الذي أعدم يوحنا طيطراخ الجليل، والبلاد الواقعة عبر النهر، وهي بلاد جلعاد، أو بالحري بلاد السبطين، ولم تكن له سلطة في السامرة، التي كانت تحت إدارة بيلايطس، وذلك حتى القدس، أو اليهودية، وبناء عليه لم يكن بإمكانه لاسجن يوحنا ولا إعدامه، لأنه لم تكن لديه سلطة هناك، لكن بعد إعدامه في مخرونتا — كما قلنا من قبل — دفن جسده في السامرة من قبل حواريه، بين النبيين المتقدمي الذكر، غير أن رأسه قد دفن في القدس، هذا ولم أشهد في أي مكان من الأرض المقدسة خرائب عظيمة مثل التي في السامرة، فهناك رأيت خرائب كبيرة جداً، ووضع هذه المدينة لايتوافق مع ما ذهب إليه كاتب التواريخ، في تعليقه على قول النص التالي:«هكذا تفعل بي الآلهة، وهكذا تزيدني، إن كان تراب السامرة يكفي قبضات لكل الشعب الذي يتبعني»[الملوك الأول:٢٠/ ١٠]، ويبدو أنه قد خيل إليه أن أسوار المدينة وقمة الجبل كانا على ارتفاع واحد، وأن الأبنية قد شيدت فوق القمة، لكن الحال لم يكن كذلك، لأن أسوار المدينة كانت عند سفح الجبل، وكانت حصينة ومدعمة بأبراج فائقة الحصانة، وكان الجبل في داخلها، ويرتفع بشكل تدريجي، وقد انتشرت عليه الأبنية وتوزعت مثلها في ذلك مثل عنقود من العنب، وكانت الأبنية مرتفعة إلى درجة قاربت فيها القمة، وكان القصر على قمة الجبل، وكان فائق الجمال، ومن الممكن أن يشاهد حتى هذا اليوم كثيراً من الأعمدة الرخامية التي دعمت أماكنه وأروقته، وحول الجبل كله، وتحت القصر، ودون بيوت الأعيان، وفي موقع الساحة العامة، أو السوق للبيع والشراء، يجد الانسان حتى في هذه الأيام، من حول الجبل كله، أعمدة رخامية واقفة في داخل الأسوار، وكانت هذه الأعمدة، فيما مضى، تدعم قناطر الشوارع، لأن شوارع هذه المدينة كانت مقنطرة، وفقاً لعادات الأرض المقدسة، وباختصار ليس لدي المزيد لأقوله حول هذه المدينة، التي

أصبحت الآن في حالة بائسة، حيث غدت في الحقيقة حديقة للأعشاب، مثلما أراد أخاب ملكها، وطلب أن يعمل كرم نابوت اليزرعيلي،لأنه كان قريباً من بيته[الملوك الأول:٢١/ ٢]، وفي الحقيقة، تحول في هذه الأيام، بسبب قضاء الرب العدل، ليس ذلك الكرم، بل قصر الملك نفسه أيضاً، إلى حديقة أعشاب، وكان وضع هذه المدينة وضعاً رائعاً للغاية، حيث منها من الممكن رؤية البحر قرب يافا، حتى رأس العين، وقيسارية فلسطين، وعبر كل جبال إفرايم إلى رامات — زوفيم، وإلى الكرمل بوساطة البحر قرب عكا، وهو مليء بالينابيع، والحدائق، والكروم، وجميع الأشياء الجيدة التي يطلبها الانسان في هذا العالم.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من السامرة، تقوم مدينة تيرزه -Ti razah (لعلها التياسير إلى الشمال الشرقي من شكيم) فوق رابية عالية، وقد حكم هنا ملوك إسرائيل لبعض الوقت قبل بناء السامرة، وقد كانت في حصة سبط منشا.

وعلى بعد ستة فراسخ إلى الشرق من تيرزه، وعلى الطريق الذي يقود إلى الأردن، تقوم بلاد تفوه Tappuah [عين تفوح]، التي تحتوي على عدد من الجبال، بينها جبل مرتفع جداً، وكان هذا أيضاً في حصة منشا، ويمتد حتى سهول الأردن عبر مواجهة مخرونتا(مخور شرقي البحر الميت).

وعلى بعد فرسخين جنوبي السامرة، وذلك قرب الطريق الذي يقود إلى شكيم وعلى الجهة اليمنى لجبل مرتفع، يقوم جبل بيت إيل(بيتين)، الذي عليه وضع يربعام بن نبط، ونصب العجلين الذهبيين، مما جعل إسرائيل تقع في الاثم، ويصحف المسلمون اسم هذا الموقع، ويدعونه بوثيل Bothil لأنهم لايقدرون على تلفظ كلمة بيت إيل.

ويوجد على بعد نصف فرسخ من هناك، وذلك على الجانب الأيسر

من الطريق، جبل أكثر ارتفاعاً من الأول، ويدعى هذا الجبل باسم دان، وهو قائم فوق مدينة شكيم، ويقول بعضهم بأن العجل الذهبي الآخر قد نصب هناك فوقه، هذا ويقول بعض آخر بأنه نصب في مدينة دان، التي اسمها الآن بلنياس، أو قيسارية فيليب، ويبدو أن هذا بالحري ما قصده جيروم، ويمكن للانسان أن يختار ما يرضيه، والذي هو على كل حال مؤكد، أن هذا الجبل، عرف باسم جبل دان.

وتقوم بين هذين الجبلين مدينة شكيم، التي اسمها الآن نابلس، وهي مدينة فائقة الجمال، ومليئة بالأشياء الجيدة، لكنها غير محصنة، كما أنه من غير الممكن تحصينها بأية وسيلة من الوسائل، وكل ما يمكن للسكان أن يفعلوه هو أنه إذا جاء عدو إلى أول البابين، القيام بالهرب إلى الباب الآخر، وذلك إذا كانوا أقل عدداً: لأن المدينة قائمة في واد بين جبلين عاليين جداً، ولذلك يمكن لأي إنسان أن يرميهابالحجارة بيده.

وعلى بعد حوالي رميتي سهم من بابها الجنوبي، يوجد جب يعقوب، وذلك إلى جانب الطريق الذي يقود إلى القدس، وهنا يوجد مقعد يعقوب، وذلك حين جلس إلى جانب الجب، وسأل المرأة السامرية أن تعطيه شربة ماء.

وفوق هذا الجب، على جهة اليمين، يوجد جبل مرتفع له قمتين، تعرف أولاهما باسم جبل جرزيم، وتعرف الأخرى باسم جبل عيبال، وقد بنى يوشع مذبحاً على جبل جرزيم، وكتب سفر التثنية(؟) ووقفوا يباركون ويلعنون، ويجيبون من جبل إلى آخر، وذلك حسبما أمروا في سفر التثنية:٢٧، ويشاهد فوق جبل جرزيم هناك في هذه الأيام هيكل قديم جداً، كان قد بناه سنبلاّت Sanballat ، حاكم المنطقة الواقعة عبر الأردن، تكريماً لجوبتير أولمبيوس، وجعله شبيهاً بالهيكل الموجود في القدس، وقد بناه من أجل صهره منسّه، الذي أراد أن يكون كاهناً أعلى، ومايزال هذا الهيكل قائماً هناك، حتى أيام الدمار الذي قام به

الرومان، وآثاره وخرائبه ماتزال مرئية حتى هذا اليوم، ومن المعتقد أن هذا الجبل وهذا الهيكل هو ما عنته المرأة السامرية وأشارت إليه، عندما قالت للرب:«أباؤنا سجدوا في هذا الجبل»[يوحنا:٤/ ٢٠].

ويوجد على جهة اليسار لهذا الجب بلدة كبيرة، غير أنها خرائب ، وهي التي أعتقد أنها كانت شكيم القديمة، لأنه يوجد هناك خرائب عظيمة جداً لقصور رخامية، وأعمدة تستحق الاعجاب، واقفة على بعد رميتي سهم من جب يعقوب، ومكان الاستراحة، وذلك فوق موقع جميل جداً، سوى أنها بدون ماء، هذا وإنني لم أشاهد قط مثل هذه البقعة بخصبها وغناها، وهي تبعد رميتي سهم عن المدينة، التي اسمها نابلس، وإنني أعتقد أن نابلس هذه قد كانت بلدة تاباص(طوباس)، ويقع إلى جانب هذا الجب قطعة الأرض التي أعطاها يعقوب إلى ابنه يوسف، خصيصاً له دون إخوته[يوحنا:٤/ ٥]، وإنها طويلة وخصبة، وهي في الحقيقة واد جميل جداً، وأنا لا أعرف أي واد آخر مساوياً له في غناه.

وفي شكيم دفنت عظام يوسف، وقد جلبت إلى هناك من مصر.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من شكيم، قرب الطريق، وعلى جهتك اليمنى وأنت ذاهب إلى القدس، تقع قرية لبنه(خان لبّن)، وهي موضع جميل جداً، وهناك لبنه أخرى في ديار سبط يهوذا، لكن هذه كانت موجودة في ديار سبط إفرايم.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب من لبنه توجد بلدة مخماس، وهي بلدة واسعة نسبياً، وقد كانت تشكل حدود ديار سبط إفرايم باتجاه الجنوب، واسمها الآن البيرة(وهم) وكانت فيما مضى من أيام ملكاً لفرسان الداوية، وعلى مقربة من طرفها الجنوبي، تقوم الحدود بين ديار سبط إفرايم، وديار سبط بنيامين.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الجنوب من مخماس توجد جبعة شاؤول، حيث جرى إغضاب زوجة اللاوي التي جاءت من بيت لحم، ومن أجل هذه الفعلة جرى تدمير تقريباً كل سبط بنيامين، وقد كانت مسقط رأس شاؤول بن قيس، الذي كان أول ملك لإسرائيل.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الجنوب من جبعة، تقوم قرية(رامه)الرام، وهي قائمة فوق رابية، وذلك ليس بعيداً عن طرف الطريق، وذلك على جهة اليسار، وأنت ذاهب إلى القدس، ومن المعتقد أن إرميا قصد هذا المكان بقوله:«سمع صوت في رامه».

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من رام، تقوم مدينة القدس الرائعة، التي لن أقول عنها هنا شيئاً، لأنني أرغب بالعودة إلى شكيم، وسوف أذكر أولاً المدن القائمة عند زاوية جبل إفرايم، وأوقف وصفي حيث أتجاوزها.

واعرف على كل حال أن هناك كثيراً من القرى في الأرض المقدسة اسمها رامه، واحدة منها قرب تقوع، على الطريق من هناك إلى حبرون، وأخرى في ديار سبط نفتالي، والثالثة ليست بعيدة عن قلعة صفد، والرابعة هي شيلوه، التي تعرف أيضاً باسم رامه، وفسر اسم رامه بأنه يعني«ارتفاع»، وفي الحقيقة تقوم جميع هذه القرى فوق هضاب مرتفعة جداً.

والآن، إذا ما مضى الانسان جنوباً(كذا) من شكيم باتجاه الأردن، فإن المكان الأول الذي سوف يلقاه هو إيمون(كفرعانا إلى الشمال من بيت إيل)(كفر العموني)[يشوع:١٩/ ٢٤]، وهي بلدة جيدة جداً، قائمة في مكان جميل، فيه وفرة من جميع سلع الدنيا، وقد كانت في حصة سبط إفرايم.

وعلى بعد أربعة فراسخ من إيمون، لدى نزولك من جبل إفرايم،

على السهل، وعلى بعد فرسخين عن الأردن، توجد قرية الفصيل Phe-sech، وذلك عند المكان الذي يجري فيه جدول كيرث Che-rith لدى نزوله من الجبل، وهنا أقام إيليا عندما جلبت الصقور الطعام له في الصباح وفي المساء.

وعلى بعد فرسخ واحد من الفصيل، على جهة اليسار، باتجاه بلاد تفوه، توجد قلعة عين دوك Docus ، حيث قتل بطليموس بن أبوبوس، سمعان المكابي بشكل خياني، ويستطيع الانسان من هذا المكان أن يرى بوضوح بلاد جلعاد، وبلاد السبطين ونصف السبط، وبلاد هشبون والمنطقة المرتفعة لبلاد مآب، وجبال عبريم، وفسغه، ونبو.

ومن هناك ينزل الانسان إلى سهل الأردن، ويمتد هذا السهل حتى أريحا، وعبرها، طوال الطريق نزولاً مع الأردن حتى البحر المالح، ويقوم جبل عبريم، وفيغير Pheger ، وفسغه مباشرة في مواجهة هذا المكان، وذلك عبر الأردن، وعليك أن تعرف أيضاً أن نهر الأردن يمتلك سهولاً جميلة على ضفتيه، وذلك امتداداً من منابعه عند سفح جبل لبنان حتى برية فاران، بطول حوالي مائة ميل وأكثر، فضلاً عن هذا، هناك فوق هذه السهول نفسها جبال عالية جداً، على كلا الجانبين، ممتدة حتى البحر الأحمر.

وعلى بعد خمسة فراسخ باتجاه الجنوب، لكن مع انحراف قليل نحو الشرق من فسغه، يقوم موقع الجلجال، حيث أقام بنو إسرائيل معسكرين لمدة طويلة، بعد عبور الأردن، وهناك جرى ختن بعضهم.

وعلى بعد نصف فرسخ عن الجلجال، على الطريق إلى أريحا، وذلك على جهة اليمين من الطريق، هناك جبل يدعى جبل القرنطل، فهناك صام الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة، وهو جبل مرتفع جداً، وصعب التسلق، وقد أغوي على جبل آخر،يبعد ثلاثة فراسخ عن هذا الجبل،

وهو قائم في القفار، على الجانب الجنوبي لبيت ايل وعاي.

وعلى بعد حوالي الرميتي سهم تحت القرنطل، ينبع نبع إيليا[رأس العين]، وتتدفق مياهه وتسير، وهي المياه التي عالجها إيليا، لأنها كانت مالحة، وعقيمة، ويجري هذا الجدول قرب الجلجال، على الجانب الجنوبي، ويدير طواحين كبيرة، ويتوزع بعد هذا على عدة أقنية، ويسقي قصب السكر، والحدائق والبساتين حتى أريحا، وماوراء أريحا، ثم يصب في الأردن.

وعلى مقربة من الجلجال، وعلى بعد نصف فرسخ إلى الجنوب، يوجد وادي عكور (وادي القلط) وذلك عند سفح جبل، وفي هذا الوادي جرى رجم عاخان، لأنه سرق أشياء ملعونة.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشرق من الجلجال تقوم أريحا، التي كانت فيما مضى مدينة مجيدة، في حين لايوجد فيها الآن أكثر من ثمانية بيوت، ويوجد هناك آثارقرية بائسة، هذا وقد جرى هناك تدمير جميع الأوابد والأماكن المقدسة، تدميراً كاملاً.

ويوجد على بعد فرسخين من أريحا، إلى جانب الأردن، بيعة[قصر اليهود]، التي بنيت على شرف القديس يوحنا المعمدان، وذلك فوق البقعة التي من المعتقد أن تعميد الرب قد جرى فوقها، ومع هذا يرى بعضهم بأن التعميد كان في ساليم[يوحنا:٣/ ٢٣]، غير أن التقاليد الكنسية تنكر هذا.

هذا وإن الذي حدث في أريحا معروف كثيراً، ولهذا لاأرى تدوينه هنا.

وعلى بعد فرسخين من أريحا، وذلك على مقربة من البحر الميت توجد بيت أوله(قصر حجله) حيث ناح بنو إسرائيل لوفاة يعقوب أباهم، وذلك بعدما جلبوا جسده من مصر، ويبعد هذا المكان فرسخاً

واحداً عن الأردن، وهناك يسكن رهبان إغريق(أرثوذكس).

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من أريحا، وفرسخ واحد عن بيعة القديس يوحنا القائمة قرب الأردن، يوجد البحر الميت، الذي يدعى أيضاً باسم بحيرة اسفلت، أي بحر الحمر، أو بحر الملح، وهو يفصل العربية عن اليهودية، ويوجد على شواطئه الشرقية بلاد مآب، وعمون، وجبل سعير، وهو مما حدثتكم عنه من قبل، وهو يمتد حتى قادش بارينا(القفار)، وبرية فاران.

وفي حوالي منتصف الطريق، على شاطئه الشرقي من الممكن رؤية الشوبك(الكرك)، التي كانت تعرف في القديم باسم البتراء في القفار، وتعرف الآن باسم الكرك، وهي قلعة فائقة الحصانة بنيت من قبل بلدوين ملك القدس، بقصد توسيع حدود مملكة القدس، لكنها مملوكة الآن من قبل السلطان، ويضع فيها جميع خزائن مصر والعربية.

وعلى مسافة سفر يومين إلى الجنوب الشرقي من الكرك توجد ايريوبولس(ربّه) التي اسمها الآن البتراء، وهي المدينة الحاضرة لجميع العربية الثانية، وذلك حسبما أوضحنا من قبل، وكانت في القديم تعرف باسم عار، وهي قائمة على جدول أرنون، على حدود المآبيين، والعمونيين، والعموريين، وعلى هذا الشاطىء نفسه، يوجد الموضع الذي اقتيد منه بلعام إلى جبل مآب ليتولى لعن بني إسرائيل.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب الغربي من أريحا توجد بلدة صغور(الزويرة)، وذلك عند سفح جبل عين الجدي، ويقوم بين هذا الجبل والبحر الميت عمود الملح، الذي يحدثنا سفر التكوين بأن امرأة لوط قد تحولت إليه، ولقد حاولت مراراً رؤية هذا العمود، لكن المسلمين أخبروني بأن المكان غير آمن، بسبب الحيوانات الضارية والأفاعي، والهوام، وبشكل خاص بسبب البدو الذين يسكنون في تلك

الأجـزاء، وهـم شجعـان جـداً وذوي جـرأة عظيمـة، ورجـال أشرار، وأبقتني هذه المناقشـات متشـوقـاً للـذهاب إلى هناك، لكن علمت بعـد ذلك أن الأمر لم يكن كذلك.

وقياس عـرض البحر الميت هو ستـة فراسخ مـن الشرق إلى الغرب، أمـا طولـه من الشمال إلى الجنوب فهـو سفـر خمسـة أيام، وذلك حسبما أخبرني المسلمون، وهو دائماً يصـدر الأبخرة الدخانيـة، وهو مظلم جداً مثل مـدخنة الجحيم، وقـد كتب حـول هـذا وقيل كثيراً من قبل مختلف الناس، وقد تعـرفت على كثير مما هو متداول، ومع هذا عليك أن تعلم بأنني لن أخـاف إخبـاركم بالذي رأيتـه بأم عيني، ومعي آخـرون كثـر، والذي وضح لي أن جميع الوادي، الذي كـان يـدعى بحق باسم الوادي المشرق، وذلك من نهاية هذا البحـر التي هي برية فاران حتى إلى سفـر نصف يوم، أو مـا يقـارب ذلـك، وراء أريحا، قـد صـار قـاحـلاً بسبب الأبخـرة الدخانيـة لهذا البحـر، وهكذا هو لاتنمـو فيه لاالنبـاتات ولا الأعشـاب من أي نوع من الأنواع، في جميـع عـرضـه، الذي هو خمسـة فـراسخ وفي بعض الأمـاكن ستة فـراسخ، وذلك باستثناء مـدينة أريحا، حيث يوجـد قصـب السكر، والبسـاتين والحدائق المروية مـن قبل نبع إيليا، وهذا في الحقيقـة قضاء مرعب من قبـل الرب، الذي عاقب هكذا منذ قرون كثيرة ذنوب السدوميين، ذلك أنه حتى الأرض نفسها دفعت ومازالت تدفع العقوبة منذ عدد كبير من آلاف السنين.

وفوق البحر، على جهة اليمين، وكـذلك على جهة اليسار هناك جبال جرداء، وقـاحلة مشعثة، وهي مسكونة فقط من البرابـرة، وذلك امتداداً لأميـال كثيرة، وذلك بعيداً حتى أقصى مكان يمكن أن تصله الأبخـرة الدخانية عندما تساق من قبل الريح.

وأعلن بعضهم أن نهر الأردن لايمـزج مياهـه بمياه ذلك البحـر، بل تتولى الأرض ابتـلاع مياه هذا النهـر قبل أن يصل إلى مياه البحـر، لكن

المسلمين أخبروني أن الحقيقة هي أن كلاهما يدخلان البحر، ويتركانه كذلك، لكن بعد مغادرتهما له بوقت قصير يبتلعان من قبل الأرض.

ويفيض هذا البحر في بعض الأوقات، ومرد ذلك إلى ذوبان الثلوج من على جبل لبنان والجبال الأخرى، وفيضان اليرموك، وجداول كل من:يبوق، وحرمون(اقرأ:أرنون) وزارد(العدد:٢١/ ١٢)، وكذلك مياه الأمطار المتساقطة على الجليل، وعلى جبل جلعاد، وفي بلاد مآب، وعمون، وسعير، فالمياه تتجمع من هذه الأماكن كلها وترفد نهر الأردن، الذي يصب في هذا البحر، فضلاً عن هذا يتم العثور على الحُمر فيه، ويستخرج من داخله، ويتجمع هذا الحُمر عندما تحرك الرياح مياه البحر، ويتعلق ببعضه، ومن ثم يقذف إلى الشواطىء بكميات كبيرة، وهذا الحمر قوي، ودوائي، ولايمكن إذابته إلاّ بدماء الطمث، ويطلق اسم الحمر اليهودي عليه، ولهذا دعيت البحيرة باسم بحيرة اليهودية، أو بحيرة اسفلت، أي أن تقول بحيرة الحمر، وقد أخبرنا سفر التكوين:١٤، أنه كان هناك كثيراً من«آبار حُمر» أو الحفر الطينية، في وادي سدوم،الذي هو الآن بحر الملح، ويوجد الآن كثير منها على شاطئه، ويوجد هناك دوماً أهرام مبني قرب كل بئر، وهذه الأمور رأيتها بنفسي، وليكن ما قلته عن هذا البحر فيه كفاية.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من موقع الجلجال المتقدم الذكر، والمسافة نفسها من نبع إيليا، نحو الشمال، في الجبال، وذلك على الجانب الشمالي من جبل القرنطل، تقوم مدينة عاي، التي استولى عليها يوشع عنوة، وقتل ملكها، وذلك حسبما أُخبرنافي سفر يشوع(٨).

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشمال، إنما قليلاً إلى الغرب من عاي،توجد مدينة بيت إيل(بيتين)، التي حملت فيما مضى اسم لوز، وذلك في ديار سبط بنيامين، وقد حدث هناك أنه عندما كان يعقوب ذاهباً باتجاه الشرق، وهارباً من أمام وجه أخيه عيسو، أن نام متخذاً

صخرة وسادة له، ورأى سلماً مقاماً فوق وجه الأرض، وذروته ممتدة حتى السماء وواصلة إليها، وهكذا إلى آخر ما رآه، حسبما نقرأ في سفرالتكوين، وقد نصب هناك صخرة، لتكون بمثابة عمود، وأطلق على المكان اسم بيت إيل، هذا وإن الذين يقولون بأن هذا قد حدث في القدس مخطئون، لأن مليكصادق كان آنذاك يحكم في القدس، وكانت وقتذاك مدينة جليلة، وكذلك لم يكن من الضروري بالنسبة ليعقوب أن ينام هناك في الحقل، ولا أن ينام مطلقاً على جبل موريا، الذي كان آنذاك — كما هو الآن — متصلاً بالمدينة، زيادة على ما تقدم إن البراهين على هذا الأمر مرئية في بيت إيل في هذا اليوم:فهناك الصخرة المقامة بمثابة عمود، وقبر كل من دبورة ومرضعة رفقة[التكوين:٣٥/ ٨] وذلك تحت المدينة في الوادي، ومع هذا يقول بعضهم:لقد أطلق على القدس اسم بيت إيل، ويستندون بحماقة على ما جاء في هذين البيتين:

«سوليما، وبيت إيل، وأورشليم، ويبوس، وإيلياء،

بهذه الأسماء دعيت مدينة القدس المقدسة، وباسم سالم أيضاً».

ولسوف أكون مسروراً أن أتعلم من هؤلاء الناس، في أية أماكن من العهدين القديم والجديد، قد وجدوا برهاناً على أن القدس قد دعيت باسم لوز، أو بيت إيل، اللهم مالم يكونوا قد قصدوا تسمية الهيكل ببيت إيل، أي بيت الرب، وزيادة على ما تقدم إننا عندما نقرأ ما جاء في سفر التكوين:١٣/ ٣ قوله:«وسار إبراهيم في رحلاته من الجنوب إلى بيت إيل»، نجد أن جيروم الذي شاهد المكان، قدم الشرح التالي:«بيت إيل مدينة تبعد إثني عشر ميلاً عن القدس، وواقعة في ديار سبط بنيامين، على يدك اليمين وأنت ذاهب إلى نابلس»، ونابلس هي شكيم، قرب لوز، الواقعة في ديار سبط إفرايم، وتمر الحدود فيما بين سبطي بنيامين وإفرايم من خلال الوسط هناك.

وعلى بعد فرسخ واحد إلى الشمال من بيت إيل، باتجاه رامه، توجد نخلة دبورة، زوجة لفدوت Lapidoth ، التي كانت قاضية إسرائيل، وأرسلت باراق للقتال ضد سيسرا على جبل الطور.

وعلى بعد فرسخين من بيت إيل، وفرسخ واحد من القدس، وليس بعيداً عن رامة بنيامين، توجد عناتا Anathoth ، وهي قرية كهنة صغيرة، وكانت مسقط رأس النبي إرميا.

وإلى الشرق والجنوب من عناتا تبدأ القفار القائمة بين القدس وأريحا، والتي يطلق الآن عليها اسم قفار القرنطل، وتمتد إلى ما وراء الجلجال حتى القفار الموجودة مقابل تقوع وعين الجدي.

وعلى مقربة من البحر الميت، على شاطئه الغربي، وعلى بعد فرسخ واحد عن الزويرة Zoar ، تصعد إلى جبل عين الجدي، إلى حيث تخبأ داوود، عندما بحث شاؤول عنه ليقتله، وذلك حسبما قرأنا عن ذلك.

وكان على هذا الجبل ومن حوله حديقة بلسم، لكن في أيام هيرود الكبير، قامت كليوباترا ملكة مصر، كراهية منها لهيرود ،وإيثاراً لمارك أنتوني، فنقلت هذه البستان إلى بابليون في مصر، ولقد رأيتها هناك عندما أتيت إلى مصر إلى السلطان، الذي أخذني إلى هناك، وقد جلبت معي كثيراً من خشب البلسم، واغتسلت بمياه البئر الذي يسقي الحديقة، وقد أخبرني الحدائقي أن الثيران لا تقوم بنضح الماء من ذلك البئر، من ظهيرة السبت حتى الاثنين، ولو قطعت تقطيعاً.

وطول هذه الحديقة رميتي سهم، ورمية حجر أو أكثر عرضاً، وتفلح حديقة البلسم في مصر من قبل حدائقيين مسيحيين فقط، وتسقى من البئر الذي هو هناك، وهو الذي يقال بأن العذراء مريم غالباً ما قامت بتغطيس الطفل يسوعاً فيه.

ومع هذا مـا يزال هنـاك حتى هذا اليـوم فـوق عين الجدي بعض الكروم الرائعـة الصالحة لإنتـاج النبيذ، لكن المسلمين لا يدعـونهم، ولا يوجد هناك مسيحيين ليتولوا رعايتهم.

وتحت عين الجدي، وعلى جـانب البحـر الميت هنـاك أشجـار فـائقـة الجمال، لكن ثمارها عندما تقطف تكتشف بأنها كلها رماد ومجرد غبار في داخلها.

وجبـال عين الجدي مرتفعـة جـداً، وذات شكل غريب ولها شعـاب صعبة وعـرة، ووديان، بشكل أنا لم أشاهد نظيراً له، وهي تبعث الرعب إلى الذي ينظر إليها ويتأملها.

وعلى بعد أربعـة فراسخ إلى الغـرب من أريحا، وذلك على الطريق إلى القدس، إلى اليسارمن القرنطل تقوم قلعة أدوميم Adummim [عند طلعـة الدم]، وذلك في المكان الذي وقـع فيـه الرجل بأيدي اللصـوص عندما كـان نازلاً من القدس إلى أريحا، وقد حدث مثل هذا مـراراً فوق البقعـة نفسهـا في الأيام الحاليـة، وقـد نال المكـان اسمـه من الدم الذي سفك مراراً هناك، وفي الحقيقة إنه لأمر مرعب أن يكون الإنسان هناك، وخطر جداً ، مالم يرتحل الإنسان ويسافر برفقة حراسة.

وعلى بعـد فـرسخين إلى الغـرب من أدوميم توجـد بحـوريم Bo-hurim في ديار سبط بنيـامين، وكـانت هذه مـدينة شمعي بن جيرا، الذي شتم داوود عندمـا هرب من أمام أبشالوم، وذلـك حسبما قرأنا في سفـر صموئيـل الثاني: ١٦/ ٥، وهي قلعـة جميلة، وقـائمـة فوق هضبـة عالية.

وفي الوادي تحت، يوجـد على الجهـة الشرقيـة مـن الطريق السلطاني العـام، الذي يخرج من أدوميم، صخـرة بيئون Beon (بوحان Bo-han)(دبوس العبـد، حجـر لتحـديد المسـافـات من العصر

الروماني)العائد لأبناء سبط رأوبين، وهي كبيرة مثل قِدْر، ويبدو أنها من الرخام.

وعلى بعد رميتي سهم إلى الغرب من بحوريم، تقوم بيت عنيا، على منحدر رابية هناك، وبيت عنيا هي قرية:مرثا، ومريم، وقبل بابها، وعلى بعد أقل من رمية حجر، وعلى مقربة من بركة هناك في حقل، من الممكن مشاهدة المكان الذي جاءت إليه مرثا أولاً، ثم تبعتها إليه مريم- بناء على دعوتها- وذلك للقاء الرب عندما جاء الى بيت عنيا.

وما برحوا يرون في بيت عنيا، بيت سمعان المجذوم- الذي جلس فيه معه الى المائدة، ومثل ذلك بيت مرثا،الذي كان فيه ضيفاً مراراً،وقد عمل هذا البيت الآن وصار كنيسة مكرسة لهما،ويشاهد هناك أيضاً قبر العازر،الذي قام منه، وهو ليس بعيداً عن الكنيسة،وقد بني في هذا المكان بيعة بهية وجميلة من الرخام، وآبدة ضريح مغطاة بالرخام، كنت قد نزلت إليها، ويبجل المسلمون هذا الضريح كثيراً، بسبب معجزة القيام من الموت التي صنعها الرب هناك.

ولدى مغادرتك لبيت عنيا، لايمكنك رؤية القدس أولاً، بسبب وجود جبل الزيتون، الذي يقف بينهما،والذي عليك هو الارتقاء الى مكان مرتفع، وعندها يمكنك رؤية جزء من المدينة المحبوبة وجبل صهيون، يا إلهي، كم من الدموع التقية سكبت في هذا المكان من قبل الذين قدموا إليه، ثم تملكوا بهجة الدنيا كلها، حيث رأوا مدينة الملك العظيم،وكم هو ممتع أن ترى مكان مجدك، أيها اليسوع المبارك،وكذلك عندما نرى مكان خجلك واضطرابك بمثل هذا السرور! لكن دعونا الآن نضع هذه الأمور كلها جانباً، ونمضي بقدر ما نستطيع من سرعة الى القدس .

وعندما ننزل الآن من الجبل، ستكون المدينة ثانية محجوبة عن

أنظارنا،فضلاً عن هذا، هناك على الجهة الشرقية من جبل الزيتون، قرب بيت فاجي، قرية صغيرة جداً، نمر من قربها من على مسافة رمية حجر، وذلك على جهة اليسار في الوادي، وذلك عند سفح جبل العدوان[الجزء الجنوبي من جبل الزيتون]،ونأخذ الطريق الذي يساير الجهة الجنوبية من جبل الزيتون، ونستدير حوله،فنصل الآن الى المكان الذي ركب فيه ربنا ظهر أتان،وعلى الفور تشرق أمامنا وتشع المدينة،مع الهيكل، وكنيسة الضريح المقدس،والأماكن المقدسةالأخرى، ونكون الآن قد وصلنا الى نهاية الانحدار من جبل الزيتون، حيث رأى الرب المدينة، وبكى بحرقة عليها،في حين مضت الحشود وسارت من أمامه ومن خلفه، وهي تصرخ«المجد لابن داوود»، وهي أيضاً مبتهجة لقدومه المبارك، ودعونا نتابع سيرنا، ونمر عبر جدول قدرون، بين مكان صلاته عندما كان يعاني من آلامه ومن أسره في جيسماني،ولنتبعه،إذا صدف وتمكنا من معاناة الوصول إلى الجلجلة، حيث سمرت قدماه على الصليب، وكان الدم يسيل منهما،فدعونا نموت هناك مع المسيح، حتى يمكن أن نبعث معه ثانية.

القدس

٨ — والآن، القدس، المدينة الأسمى لدى الرب، حيث هناك أشياء رائعة جداً، قد جرى الحديث حولها، وما يجري يومياً، وهي متوضعة على أرض جبلية، فالجبال قائمة من حولها، ومع هذا تمتلك بلاداً جيدة وخصبة في أحوازها، وذلك ما عدا في الشرق باتجاه الأردن، وهي تبعد ستة وثلاثين فرسخاً عن عكا، القائمة إلى الشمال، وستة عشر فرسخاً عن سبسطية أو السامرة، وثلاثة عشر عن شكيم، وسبعة وثلاثين عن الناصرة، وجميع هذه الأماكن واقعة إلى الشمال منها، وهي تبعد ثلاثة عشر فرسخاً عن يافا، القائمة قليلاً إلى الشمال الغربي منها، وهي أيضاً تبعد ستة فراسخ عن أريحا، القائمة إلى الشرق منها، وكذلك هي على

فرسخين عن بيت لحم، وثمانية عن تقوع، وثمانية عن حبرون، وهذه الأماكن واقعة إلى الجنوب منها.

وهي قائمة على شكل مزدوج على منحدر رابية، أي أن تقول على طرفيها الجنوبي والغربي، ففي الاتجاه الجنوبي هي قائمة على امتداد طرف جبل صهيون، أو بالحري جزء منها هو على جبل صهيون نفسه، وجزء على سفوحه هناك، ويمتد طولها من جبل صهيون باتجاه الشمال، ويوجد على جانبها الغربي جبل جيحون، ومنه تمتد عرضياً باتجاه الشرق، حتى تصل إلى جدول قدرون، أو وادي شعفاط، الذي هو الشيء نفسه.

وهي مدينة واسعة إلى حد ما، وذلك حسبما سأحدثكم فيمايلي، وهي لاتقوم —كما يحاول عبثاً بعضهم أن يقول — في مكان مختلف عما كانت عليه في أيام آلام الرب، وهم يحاججون قائلين بما أن معاناة الرب كانت خارج الباب، والمكان الآن هو في داخل أسوار المدينة، وبناء عليه لابد أن المدينة كانت قائمة في مكان مختلف، غير أنهم لايعرفون ما الذي يقولونه، ويريدون أن يظهر ما لم يرونه، فالمدينة قائمة الآن حيث قامت دوماً، لأنه بما أن هيكل الرب قائم داخل أسوار المدينة، سيكون من الحماقة، لابل من غير الممكن مطلقاً نقله إلى مكان آخر بسبب أسواره المحيطة به من كل جانب، فضلاً عن هذا من غير الممكن كونه في مكان مناسب آخر، لكن الحقيقة المقررة هي إن المدينة توسعت نحو الخارج، وذلك بالعرض وليس بالطول، وجميع المدينة القديمة مع جبل صهيون موجودان الآن داخل الأسوار، ومسكونان، لكن في هذه الأيام عدد السكان قليل بالنسبة لمدينة من هذا الحجم الكبير، لأن السكان فيها يعيشون في رعب متواصل، ولقد قمت، بقدر ما أستطيع بالبحث والتقصي عن وضعها القديم.

ففي الزمن القديم، مثلما الحال في هذه الأيام، يشرف جبل صهيون جزئياً فوق المدينة، لأنه مكان رحب، من الممكن في داخله استيعاب

مدينة واسعة إلى حد ما، وهذا الجبل موجود عند باب الماء، أو باب نبع سلوان، على الطرف الشرقي، وهويشكل نصف دائرة حولها بوساطة الطريق الممتد من الجنوب إلى الطرف الغربي، حيث كان برج داوود موجوداً، وكان موجوداً خلال جميع هذه الدائرة صخوراً منحدرة، وقناطر تشبه القناطر نصف الدائرية والمسماة ميلو Mello ، ولكي يتم ملء ما كان بين جبل صهيون والجزء المنخفض من المدينة نقرأ بأن ملوك اليهودية بذلوا جهوداً كبيرة، ويقوم برج داوود على الطرف الغربي، وذلك فوق رابية مرتفعة بعض الشيء أكثر من سور الصخرة المنحدر، أما بشأن مجرى السيل الذي يأتي من الجانب الجنوبي لجبل صهيون، ويتدفق جارياً نحو الطرف الغربي، فإنه ينعطف مباشرة، ويستدير من الغرب إلى الشرق مباشرة، فور وصوله إلى البرج وتطويقه له، وعلى هذا يقوم البرج فوق صخرة موجودة عند منعطف مجرى السيل، وانقسم الوادي، أو مجرى السيل، الذي التف دائرياً هناك، إلى واديين عميقين، يمضي أولهما باتجاه الشمال، ويمضي الآخر باتجاه الشرق، ويصنع هذان الواديان قرنة أخرى في مقابل القرنة حيث يقوم برج داوود، وهي التي كانت قرنة المدينة التحتا، حسبما سنوضح فيمايلي:

ويمر هذا الوادي الذي يقبل منحدراً من برج داوود، ويسير على طول الطرف الشمالي لجبل صهيون حتى جبل موريا، حيث كان الهيكل، فاصلاً بذلك جبل موريا والمدينة التحتا كلها عن جبل صهيون، ويمضي مجرى السيل هذا أبعد بعد ليصل حتى جدول قدرون، وذلك من خلال المكان الذي يقوم فيه باب الماء الآن، فيما بين جبل صهيون وقصر سليمان، الذي كان قد بني على الطرف الجنوبي من جبل موريا، وعلى هذا كان مجرى السيل هذا يطوق في العصور القديمة جبل صهيون من كل جانب، وهذه كانت مدينة داوود، وفي هذه الأيام جميع مجرى السيل ممتلىء، ومع ذلك فإن آثاره يمكن تحديدها وفق هذه الطريقة.

ويجري مجرى السيل الثـاني، أو الذي انفصل عنـه، عند برج داوود، حسبما قيـل من قبـل، يجري بـاتجاه الشمال، ويشكـل خندق المدينـة على الجهـة الغـربية، وذلك على طول امتـداد المدينة، حتى نهايتهـا الشماليـة، وكان الطريق كله على طولها معـاقاً من الجانب الداخلي بوسـاطة صخرة اسمها عند يوسفيـوس أكرا Acra ، وعلى هذه الصخرة جـــرى بناء سـور المدينة، ويحيط هذا السور بالمدينـة من الغرب، حتى باب إفـرايم، حيث ينعطف ويلتف ثانيـة إلى الشرق، وذلك حتـى باب الزاوية، وهو الذي كـــان قـــائماً عند زاوية المدينـة، وهي الزاوية الشماليـــة الشرقيـــة، وينعطف السور هنا ثانيـة من الشمال مستديراً شرقـاً إلى الجنوب، ويجتاز خارج منطقة الهيكل، ويحيط بها وبيت الملك، وبباب النبع أو الماء قرب جبل صهيون في الشرق، وهذا هو إطار المدينة، وبما أن الصخرة المتقدمة الذكـر، أي التي بني عليهـا سـور المدينة الغـربي، كـانت عـاليـة جـداً، وخـاصـة عند الزاوية التـي يلتقي فيهـا الجزء الغـربي من السـور بالجزء الشمالي، فقـد غـــدا هذا المكان أعلى بكثير من البقيـة، وهنـا جـرى بناء برج[قلعـة جـالوت — أو قلعـة البيـازنة] دعي باسم نبـولوسـا Neb-ulosa وذلك مع قلعة حصينة جداً، ماتزال خـرائبها موجودة هناك، ومنها يمكـن للانسان مشـاهدة العربية، والبحـر الميت، وأماكـن أخرى كثيرة، ومع هذا قـد يقول بعضهم بأن برج نبـولوسا كـان قرب الهيكل، بيـد أن هذا أمـر ينفيه شكـل الأرض والسفوح والمنحـدرات الموجـودة هناك، ومن هذه الصخرة العاليـة جداً والقائمة في الجهـة الغربية، حسبما قلنا من قبل، يـأخـذ عـرض المدينة بالانحـــدار تدريجيـا نحـــو السـور الشرقي، القائم فـوق جدول قـدرون (وادي جهنم)، وكان هذا المكان، وكذلك هو الآن، الجزء الأعظم انخفاضاً في المدينة، ولهذا من المعتاد أن تجري فضلات المدينة وتعبر باب الروث لتصب في بركة قدرون.

وعبر مجرى السيل، أ و الوادي، المتقدم الذكـر على الجهة الغـربية من

المدينة، وذلك على جهة يسارك وأنت خارج من الباب القديم أو باب القضاء، هناك جرى صلب الرب، وبعد آلامه بوقت طويل امتلأ مجرى السيل، وأقيم سور جديد حول برج داود، ويمتد إلى باب إفرايم، الذي يعرف الآن باسم باب اسطفان.

وعلى هذا يمكنك أن ترى أن المدينة معلقة ناتئة على جهة الجنوب بوساطة جبل صهيون وعلى جهة الغرب بوساطة تلك الصخرة، وجزء من جبل جيحون، الذي ينبعث مرتفعاً ارتفاعاً عالياً على طول الجهة الغربية، وعلى هذا فإن المدينة كلها قائمة— كما كانت— على السفوح نحو الاتجاه الشرقي والاتجاه الشمالي، عند أسفل هذين الجبلين.

وكان جبل موريا— حيث قام هيكل الرب، وحيث كان قصر الملك قد بني— أعلى بعض الشيء من المدينة، وهذا ما هو مرئي بوضوح من وضع الهيكل وساحاته، وذلك حسبما وصفهم يوسفيوس، فكل منهم موصوف في تواريخه، غير أنه من المعتقد أن جميع هذه الأماكن هي الآن مسواة تماماً ومهدمة، وهي جميعاً تقريباً أكثر انخفاضاً من أي جزء من المدينة، لأن الجبل قد هدم من قبل الرومان ورمي في جدول قدرون [واداي جهنم] وذلك مع جميع خرائب الهيكل وساحاته، وذلك حسبما هو مرئي في هذا اليوم، ومنطقة الهيكل مربعة، وهي أكثر من رمية سهم طولاً وعرضاً، ويلامس الهيكل المبني الآن هناك سور المدينة تقريباً، وهو ليس الهيكل الحقيقي والقديم، لأنه وجدت أربعة هياكل بينه وبين السور، وهو الآن لايبعد تقريباً أكثر من مائة قدم عن السور وعن جدول قدرون.

وليس بعيداً، كأن تقول، أقل من رمية حجر إلى الشمال من منطقة الهيكل، يوجد باب الوادي الذي دعي هكذا لأن الانسان يذهب منه وينزل إلى وادي شعفاط، وقد عرف هذا الباب أيضاً باسم باب الضأن، لأن من خلاله كان يؤتى بالمواشي للتضحية في الهيكل، وإلى جانبه يقوم

برج اعتقد بعضهم بأنه برج نبولوسا، أو برج حنانئيل Hananeel، غير أنه في الحقيقة هو برج فاسليوس Phaselus، الذي من الممكن مشاهدة خرائبه حتى الآن.

وبالدخـــول مـــن باب الوادي أو باب الضأن، ومـــن ثم السير بشكل مستقيم، سيجد الانسان على مقربة من منطقة الهيكل بركة الضأن حيث اعتـــاد الـ Nethinims على غسل قـــرابينهم ومن ثـــم اعطاءهم إلى الكهنة لتقـديمهم في الهيكل، ومن الممكن رؤية استمرار هذا من خـلال وجـود القناطر الخمسـة التي — حسبما حدثنا القـديس يوحنا— اعتـاد الناس المرضى على الرقود تحتها، انتظاراً لاضطراب الماء وتحركه.

وعلى الجهة اليمنى للطريق، ولدى دخولك عبر الباب المتقدم الذكر إلى كنيسـة القـديسة حنة، ترى هناك بـركة أخـرى كبيرة تدعى «البركـة الداخليـة»، وقد صنع هذه حـزقيا وفق الطريقـة التالية: أوقـف المجرى العالي لوادي جيحـون، وساق ميـاهه تحت الأرض إلى غربي برج داود، وذلك من خلال الوادي المتقدم الذكر، بحفره الصخر الصلب بالحديد، وذلك حسبما نقـرأ في الإلهيات، وسـاق الماء من خـلال وسط المدينة إلى هذه البركة، وكـانت الغاية من ذلك أن يتـوفر الماء لشرب الناس في أيام الحصار، ولكي لايتمكن الآشوريون من اعاقتهم [إشعيا:٧/ ٣، ٢٦/ ٢. الملوك الثاني: ١٨/ ١٧]، أما بالنسبة لنبع ماء جيحون، القائم قرب حقل القصار، فقد ساق مياهه إلى البركـة العليا، الموجودة فوق بركة سلوان [إشعيا: ٧/ ٣]، ذلك أن هذه البركـة عرفت باسم البركة العليـا، بالنسبة لموضع بركـة سلوان للاغتسال، التـي كانت تتلقى الماء من هذه البركـة، ومن نبع سلوان، ذلك أنها منخفضة بوضعها أكثر منهما.

واعرف الآن هـذه البرك المختلفة وأسمائها، وكـانت البركة الـرئيسية التي هي البركـة الأولى في القدس، بركة الضأن، وكـان لها خمس قناطر، وقد عمل سليمان هذه البركـة، من أجل خدمة الهيكل ، وكـانت البركة

الثانية على مقربة منها، في الجهة الشمالية، في كنيسة القديسة هيلانة، وقد دعيت باسم البركة الداخلية، والذي صنعها هو حزقيا، وقد تقدم وصفها الآن من قبل، والبركة الثالثة هي بركة سلوان للاغتسال، التي كانت قائمة عند سفح جبل الزيتون مع جبل صهيون، قرب حق الدم، وهي تحصل على مياهها من نبع سلوان، وحزقيا هو الذي صنع هذه البركة أيضاً، والبركة الرابعة هي البركة العليا، التي ذكرناها قبل قليل، والتي صنعها حزقيا أيضاً، وإذا ما وجدت في أي مكان قد ذكر بأن هذه البركة الرابعة قد كانت في داخل المدينة فإن ذلك غير صحيح، لأن ذلك كله غير ممكن، وأعرف أن الانسان يقرأ في شرح وفي نص: «فتستقون مياها بفرح من ينابيع الخلاص» [اشعيا: ١٢]، بأن البركة العليا كانت في المدينة، وأن مياهها كانت تأتي إليها من نبع سلوان، لكن هذا من غير الممكن مطلقاً، لأن المدينة أعلى بأكثر من أربعمائة ذراع من نبع سلوان، ولايمكن للماء أن يجري نحو مثل هذا العلو العظيم، ومع هذا صحيح أن مياهها تحصل عليها من نبع سلوان، ومن نبع جيحون المنخفض، ليس بعيداً عن بركة سلوان للاغتسال، هذا ولم أر بركاً أخرى، كما أنني لم أقرأ عن وجود شيء من هذا القبيل، أو أنه وجد في القديم أية برك أخرى في القدس، ما لم يرغب انسان في عدّ «البحر النحاسي» القائم أمام الهيكل، بركة من البرك، وجرى على كل حال، في الأيام المعاصرة بناء بعض أماكن الاستحمام في داخل المدينة، وذلك ليس بعيداً عن بيت البطريرك، ومشفى القديس يوحنا، وهما لم يرد ذكرهما في الكتابات المقدسة.

ويحيط وادي شعفاط أيضاً بالمدينة، ويسير على طول الجانب الشرقي عند سفح جبل الزيتون، ومع أن هذا الوادي عميق نسبياً، هو بالفعل ممتلىء تماماً، لأن الرومان— وفق ما أخبرنا به يوسفيوس— قاموا، عندما كانوا يحاصرون المدينة من ذلك الجانب، بقطع أشجار الزيتون

والأشجار الأخرى، وصنعوا منها سواتر دفاعية لأنفسهم، وقد ملأوا الوادي بالسواتر الدفاعية، فضلاً عن هذا، بعد ما جرى الاستيلاء على المدينة،أمر إليوس هدر يانوس بجميع الخرائب العائدة لساحات الهيكل، فرميت في وادي قدرون، وأمر أيضاً بتسوية جبل موريا، حتى لايمكن تحصين المكان مرة ثانية، كما أمر أيضاً بفلاحة المدينة بالملح، وهذه الأشياء كلها بديهية بالنسبة لأي إنسان يكون في الموقع، لأن ضريح العذراء الرائعة، القائم في وادي شعفاط، ليس في قعره، لكن عند سفح جبل الزيتون، لم يكن أبداً أعلى من قعر الوادي، أو فوق وجهه، وذلك في الأيام التي كانت القدس فيها مسكونة، أي قبل التدمير، وهو الآن عميق جداً تحت الأرض، وهكذا فإن الكنيسة كلها، مع أنها كانت عالية ومقنطرة، هي الآن تحت الأرض تماماً، ومغطاة كليا، والوادي فوقها كامل الاستواء، وهكذا هناك طريق يمكن للانسان أن يمشي عليه فوق سطح الكنيسة وهناك على كل حال على وجه الأرض بناء على شكل بيعة، تدخلها، وتنزل من خلالها درجات كثيرة تحت الأرض إلى الكنيسة نفسها، وبذلك تأتي إلى ضريح العذراء الرائعة، وأعتقد أن هناك ستين درجة، والضريح قائم في وسط السدّة، أمام المذبح، وهو من الرخام ومزين بشكل رائع، ولقد دخلت إلى هذه الكنيسة، وكنت بها، ورأيت الضريح، لكن هذه الكنيسة رطبة جداً في داخلها، لأن وادي قدرون يجري تحتها، وهو مغطى بالركام الذي أشرنا إليه أعلاه، وفي أي وقت يكون هناك فيضان من مياه الأمطار، يتفجر هذا الوادي الذي مايزال يجري في القناة القديمة تحت الركام، وينبع، وبذلك يملأ الكنيسة، وهكذا تجري المياه فوق جميع الدرجات، وتتدفق من فم البيعة فوق ذروتهم، وفي أرض مقبرة الكنيسة، ليس بعيداً عن بابها، ينضح الناس من السكان المحليين الماء من بئر سماه نحميا (٢/ ١٣): «عين التنين»، وهذه العين موجودة أمام باب الوادي، أو باب الضأن، وتضاء كنيسة العذراء المباركة من الداخل بوساطة نوافذ

شرقية، تطل على جبل الزيتون، حيث من طبيعة الأرض يمكن للضوء أن يدخل من خلالهن.

وباتجاه الشرق— ليس بعيداً— أن تقول حوالي الخمسين قدماً عن باب البيعة الذي يقود إلى الكنيسة، هناك باب كنيسة أخرى، اسمها جيسماني، حيث كانت الحديقة التي دخل إليها الرب مع حواريه، وهي قائمة على طرف الجبل، ومبنية مقابل صخرة مجوفة معلقة وناتئة من الجبل، وتحت هذه الصخرة كان الحواريون جالسين عندما قال الرب لهم: «اجلسوا ههنا حتى أمضي وأصلي هناك» [متى:٢٦/ ٣٦]، والمكان الذي جلسوا فيه مرئي في هذا اليوم، ومرئي أيضاً المكان الذي أُعتقل فيه من قبل الحشد، وحيث قام يهوذا بخيانته بوساطة قبلة، ومن الممكن رؤية طبعة جمجمته فوق الصخرة الناتئة، وعلامات رأسه وشعره، ويحكى بأنه عمل هذه العلامات، لدى امساكه بالصخرة، عندما اعتقله الحشد، واعرف أنه من غير الممكن استخراج غبار من هذه الصخرة، أو اقتطاع جزء منها، فلقد عملت طويلاً بوساطة أدوات حديدية، حتى أتمكن من اقتطاع شظية منها، ومع هذا فإن الطبعات المشار إليهن أعلاه من الممكن رؤيتهن بكل وضوح، وكأن الصخرة قد كانت عجيناً.

وعلى رمية حجر إلى الجنوب من جيسماني يوجد المكان الذي صلى فيه بعيداً عنهم، وأخذ عرقه يتصبب على الأرض مثل نقاط من دم، وهنا أيضاً توجد صخرة من النوع نفسه عليها أيضاً طبعات لركبتيه ويديه.

وبين هذا المكان وبين جيسماني، وفي مقابل كنيسة العذراء المباركة، يمر الطريق الذي يقود إلى جبل الزيتون، وبيت عنيا، والأردن.

وعلى أكثر من رمية حجر نحو جنوب المكان الذي صلى الرب فيه، في مقابل الهيكل، وعند سفح جبل الزيتون، في وادي شعفاط، يقوم قبر

ذلك الملك، الذي يمتلك آبدة فائقة الجمال قد بنيت فوقه.

وعند سفح جبل صهيون، وفي مقابل قصر سليمان، وذلك على الجانب الغربي من وادي شعفاط، يوجد نبع سلوان ، الذي تتدفق منه المياه من خلال أنابيب إلى البركة العليا، وإلى بركة استحمام سلوان، ويكون هذا عندما يفيض النبع بالمياه، لأنه لايتدفق بشكل متواصل، بل بين آونة وأخرى.

وكل من هاتين البركتين موجودتين عند سفح جبل صهيون، بينه وبين حق الدم، وتصب المياه كذلك في هاتين البركتين من نبع جيحون المنخفض (بركة السلطان)، الذي ينبع تحت حقل القصار، وذلك على مقربة من المكان الذي وقف فيه ربشكا Rabshakeh، وجدف ضد الرب.

وعلى مقربة من هاتين البركتين، أي على مسافة لاتتجاوز رمية حجر، على طول الوادي إلى الجنوب، يوجد حقل حق الدم، وذلك حيث يجري دفن الحجاج، وهوالذي شري بالثلاثين قطعة فضية التي باع بها يهوذا الرب، ويوجد في هذا الحقل كثيراً من الاضرحة ذات النفقات العالية.

ودون البركتين وحقل حق الدم، وذلك على الجهة الشرقية منهم، يجري جدول قدرون، وذلك مع المياه التي يجلبها معه من أجزاء علوية، نذكر منها: رامه، وعناتا Anathoth، وضريح ملكة عبادين، ومن الممكن سماع أصوات خرير المياه الجارية عميقاً تحت كنيسة العذراء المباركة، وهي تتدفق إلى هذا المكان، فضلاً عن هذا نجد أن المياه التي تفيض من هاتين البركتين تلتحق بها، وهكذا تتدفق هذه المياه جميعاً لتصب في وادي جيسماني، الذي عرف أيضاً بموضع توفت، ويوجد في هذا الوادي صخرة زوحلت، وكذلك بئر روجل(عين أيوب)، حيث

أقام أدونيا حفلاً عندما حاول أن يكون ملكاً، وهناك أيضاً جرى دفن إشعيا، الذي قطع إلى نصفين قرب نبع سلوان، والموقع على بعد أكثر من رمية حجر عنه، وكل هذه الأماكن فائقة الجمال، مع حدائق ونباتات خضراء، وهي مليئة بالفواكه الجيدة، وتسقى بمياه جدول قدرون.

وفوق هذا المكان يوجد جبل العدوان، وكان في هذا الوادي حديقة، وكانوا قد اعتادوا على تعبير أولادهم هناك من خلال النار، وعبادة الأصنام.

وليكن ما قيل فيه كفاية بالنسبة لوصف الأماكن حول المدينة.

واعلم الآن أن هناك كثيراً من الأماكن المقدسة في المدينة، تحرك الانسان نحو التقوى، وهي كثيرة إلى حد أن يوماً واحداً لايكفي لزيارتها جميعاً، ومهما يكن من أمر، تحتل كنيسة الضريح المقدس المكان الأول بين جميع هذه الأماكن.

وهذه الكنيسة مستديرة، ومقاييس قطرها بين الأعمدة هو ثلاثة وسبعين قدماً، دون حساب النتوءات الخارجية، التي قياسها ثلاثين قدماً من حول سور الكنيسة، ويوجد فوق ضريح الرب، القائم في وسط الكنيسة، هناك فتحة مستديرة، وعلى هذا فإن مجمل قبو الضريح قائم في الهواء الطلق.

وإلى جوار هذه توجد كنيسة الجلجلة، وهي مستطيلة، ومتصلة بشرفة كنيسة الضريح المقدس، غير أنها منخفضة عنها بعض الشيء، لكنهما معاً قائمتان تحت سقف واحد.

وطول الكهف الذي يوجد فيه ضريح الرب ثمانية أقدام، ومثل ذلك ثمانية أقدام عرضه، وهو مغلف كلياً بالرخام في الخارج، لكنه في الداخل مجرد صخرة عارية، كما كانت أيام دفنه، والباب الذي يؤدي إلى مدخل هذا الكهف موجود من الجانب الشرقي، وهو منخفض كثيراً،

وصغير.

ويجد الانسان لدى دخوله على جهته اليمنى قبر الضريح المقدس، وذلك مقابل الجدار الشمالي، وهو من الرخام الرمادي، وعلوه ثلاثة أشبار فوق سطح الأرض المبلطة، وطوله ثمانية أقدام، ومثله مثل القبو أوالكهف نفسه القائم في داخله، مغلق من كل جانب، ولايوجد ضوء خارجي يتسرب إلى داخله، لانعدام وجود نافذة تجلب الضوء إلى الداخل، لكن هناك تسعة مصابيح معلقة فوق ضريح الرب، وهي تعطي الضوء في داخل المكان، وهناك أيضاً كهف آخر خارج هذا الكهف، له الطول نفسه والعرض والاعداد والتنظيم في كل من الخارج والداخل، ويبدو أن هذان الكهفان من الخارج كأنهما كهف واحد، لكن عندما تدخل سوف تجد أنهما منقسمان ومنفصلان في الوسط أحدهما عن الآخر، ويدخل الانسان أولاً إلى الأول، ومن ثم إلى الثاني، الذي يوجد فيه الضريح، وإلى الأول دخلت النسوة عندما قلن:«من سيدحرج هذه الصخرة لنا»الخ، وقد دحرجت هذه الصخرة نحو مواجهة الباب في الكهف الداخلي، وفي هذه الأيام قسم كبير منها ممدد أمام باب الكهف الداخلي، الذي نحوه وإلى مقابله قد دحرجت، وذلك في الوسط هناك، وقد نقل الجزء الآخر منها إلى جبل صهيون لدعم المذبح هناك، وقد رأيت هذه القطعة أيضاً هناك، في ذلك المكان.

ويبعد جبل أكرا(الجمجمة) حيث جرى صلب الرب فوقه، سبعين قدماً عن مكان الضريح، ويصعد الانسان ثمانية عشر قدماً فوق سقف الكنيسة المبلط إلى المكان الذي ثُبت فيه في الصخرة، والفتحة —أو الصدع — في هذه الصخرة نفسها التي فيها جرى تثبيت الصليب واسعة بقدر رأس إنسان، وتمتد طولياً ثمانية عشر قدماً، وذلك من مكان الصلب نزولاً حتى البلاط في الأسفل، وإلى هذا اليوم من الممكن رؤية لون دم مولانا يسوع المسيح في صدع الصخرة، وكان هذا الصدع

تحت يده اليسرى، وقـد بني في هذا المكـان، حيث كـانت يده اليسرى ،مذبح رخامي جميل جداً، وقد رتلت هناك قداساً حول الآلام، وقرأت خبر الآلام وفقاً لرواية القديس يوحنا، في قـداس جرى الاحتفال به في المكان نفسه لآلام المسيح.

وهذه البيعة مبلطة كلهـا بالرخام، وجدرانها مغطاة بالرخـام، ومزينة بأعمال الفسيفساء من الذهب الخالص،

وعلى بعد أربعة وعشرين قدماً إلى الشرق من الجمجمة، هناك مذبح، يوجد تحته قطعـة من العمود، الذي جُلد الرب عنده، وقد حملت إلى ها هنا وجلبت من بيت بيلايطس، وهي مغطاة بحجارة المذبح، إنما بطريقة يمكن بها لمسها، ورؤيتها، وتقبيلهـا من قبل المؤمنين، والعمود قطعة من صخرة رخاميـة سماقية داكنة، فيها نقاط حمراء طبيعية، يعتقـد العامة أنها لطخ من دم المسيح.

ويقال بأن شطراً آخر من هذا العمود قد نقل إلى القسطنطينية.

وعلى بعـد عشرة أقـدام إلى الشرق من مـذبح هذا العمـود، ينزل الانسان أربعين درجة إلى المكان الذي وجدت فيه هيلانة الصليب.

ويوجد هنا بيعة مع مذبحين عميقاً تحت الأرض.

ويبـدو لي أن المكان الذي استخرج منه الصليب قـد كان واحـداً من خنادق المدينة، فيه كانت ترمى الصلبان، بعد إنزال الأجساد عنها، وفيه أيضـاً كـانت ترمى جميع فضـلات المدينة التي تراكمت فـوق الصلبـان، وبقي الأمـر كـذلـك حتى جـاءت هيـلانة فنظفت المكان ووجـدت الصليب، لأن مكان الآلام كـان على مقـربة من المدينة، وكـانت هناك حديقة في ذلك المكان.

هذا وإن المكان الذي وقفت فيـه العـذراء المبـاركـة على مقـربة من

الصليب مع المرأتين الأخرتين، لم يكن ذراع الصليب في جهة الشمال، بل أمام وجه ابنها في الجهة الغربية، أو قريب من هناك، والمكان الذي وقفت فيه أمام وجه ابنها، وهو معلق فوق الصليب، مرئي عند سفح الجبل مع الصخرة التي جرى تثبيت الصليب عليها، وهو مبجل من قبل المؤمنين، وغالباً ما رأيت هذا المكان، فضلاً عن هذا، عندما كان المسيح معلقاً فوق الصليب أدار وجهه نحو الغرب،وليس نحو الشرق، كما ذهب بعضهم إلى القول، وهذا واضح لأن مجرى السيل الذي تقدم ذكره، والذي خدم بمثابة خندق للمدينة على الجهة الغربية، كان خلف الصليب، وقد ألقي الصليب فيه، وفيما بعد تم العثور عليه هناك حسبما تقدم القول.

وهناك عدد كبير من المذابح المزينة في هذه الكنيسة.

وقبل الباب الغربي لهذه الكنيسة، يوجد المكان، الذي صلت فيه مريم المصرية أمام تمثال العذراء المباركة، وذلك بعدما حاولت دخول الكنيسة، فدفعت بشكل اعجازي ولم تمكن من الدخول إليها، ثم تمت تعزيتها باستجابة العذراء المباركة لصلواتها.

وبالذهاب من هناك نحو برج داود وجبل صهيون، يوجد المكان الذي قتل فيه صبراً القديس جيمس من قبل هيرود أغريبا، وذلك حيث المكان الذي سخر فيه اليهود من المسيح، وأيضاً المكان الذي سجنوه فيه حتى الصباح، وهو المكان صار يعرف باسم سجن الرب، وعلى رمية حجر من هذا المكان يوجد الموضع الذي انتقلت إليه مريم العذراء المباركة وسكنت فيه طوال المدة التي عاشتها، بعد صعود الرب إلى السماء، وعلى مقربة من هذا المكان الذي القاعة الكبرى للعشاء، حيث تعشى الرب مع حواريه، وغسل أقدامهم، وأعطاهم جسده ودمه، وظهر لهم مرات عديدة بعد قيامته، وحيث جرى اختيار متى رسولاً من قبل الجميع، وحيث نزل الروح القدس، وتم أيضاً صنع أشياء

رائعة كثيرة.

واعلم أن مدينة القدس قائمة فوق أرض عظيمة الارتفاع، يمكنك منها رؤية جميع العربية، وجبل عبريم، ونبو، وبسغة، وسهل الأردن، وأريحا، والبحر الميت، حتى البتراء في الفيافي، وأنا لم أشهد قط أية مدينة أو مكان، امتلك مشهداً أجمل، ويمضي الانسان صعوداً إليها من كل جهة، لأنها قائمة فوق البقعة الأعلى في البلاد، وذلك باستثناء شيلوه، الموجودة على بعد فرسخين من هناك.

وبالنسبة لحجم المدينة المقدسة، عليك أن تعرف، أن قياس محيط المدينة حوالي ثلاث وثلاثين غلوة، وذلك من دون حساب جبل صهيون، فهذا ما ذكره يوسفيوس، أما هي كلها مع جبل صهيون: فإن السور الخارجي— أي أن تقول السور الثالث، أيضاً تبعاً ليوسفيوس نفسه— فيه تسعين برجاً، ويقع كل برج على مسافة مائتي ذراع— أي أربعمائة قدم— مما يجعل بين كل برج وبرج مسافة ستين خطوة، وإذا ضربنا هذه الستين خطوة بالتسعين برجاً، فإن النتيجة سوف تكون خمسة آلاف وأربعمائة خطوة، وتشكل هذه إطار الدائرة حول المدينة، وإذا حسبنا الآن أن خمسمائة خطوة وخمس وعشرين خطوة تساوي غلوة، فإننا إذا قسمنا خمسة آلاف وأربعمائة على مائة وخمس وعشرين، فإن المحصلة هي أربعين غلوة، وهذه تساوي خمسة أميال، فهذا كان محيط المدينة في أيام تدميرها من قبل الرومان، حسبما أخبرنا يوسفيوس، لكن منذ ذلك الوقت قام المسيحيون بتوسعة المدينة، وأدخلوا مكان ضريح الرب إلى داخل الأسوار، وقال اللورد المبجل الأب جيمس دي فيتري، بطريرك القدس في كتابه حول الاستيلاء على الارض المقدسة، بين أشياء وقضايا أخرى: «غالباً ماذكر، وعلينا أن نذكر دوماً، أن المدينة قائمة كلها فوق جبل مرتفع، وهي محاطة من جميع الجوانب بسور قوي، وهي ليست منزعجة بضيق المساحة الشديد، ومثل هذا ليست مضطربة

بسبب وجود فائض بالحجم، فمقاسها أربع رميات سهم من السور إلى السور المقابل، وتمتلك على الجهة الغربية حصنا قد بني بالحجارة المربعة، وهذه الحجارة ملتصقة مع بعضها بعضاً بشكل غير قابل للكسر، وجاء ذلك بوساطة الملاط والرصاص، ويقوم هذا الحصن من أحد الجوانب بدور سور المدينة، وهو يعرف باسم حصن برج داوود، وهو الذي يسميه بعضهم باسم برج أنطوني، وهناك على جانبه الجنوبي جبل صهيون، وذلك حيث بنى داود لنفسه بيتاً، وحيث أيضاً جرى دفنه مع الملوك الآخرين، وهو الذي أطلق عليها اسم مدينة داوود، غير أن جبل أكرا، الذي صلب فوقه الرب، قد قام خارج أسوار المدينة، على الجانب الغربي، وتولى على كل حال إيليوس هدريانوس إعادة بناء المدينة التي هدمها تيتوس وفسبسيان، وقد وسعها كثيراً، بحيث أنها شملت موضع الصلب والضريح، وباتت هذه الأماكن داخل إطار الأسوار، ومع هذا بقي الشكل العام كما كان من قبل»، وبهذا أكون قد فرغت من اقتباس كلمات اللورد جيمس.

ودعونا الآن نتولى وصف أبوابها، ووصف الجبال المحيطة بها، مع أهم أماكنها البارزة:

وكان أول أبوابها هو باب داوود، وهو الباب الذي كان موجوداً في الجهة الغربية لجبل صهيون، وذلك حيث توجد قرنة المدينة التحتا، في مقابل برج داوود، عند المكان الذي يتشعب فيه مجريا السيل، وينفصل أحدهما عن الآخر، حيث اتجه أولهما نحو الشمال، واتجه الآخر نحو الشرق، وكان هناك بناء مقنطر قبل الباب، إنما على الجانب الأقصى من الوادي، الذي من خلاله كان الطريق يقود الى خارج المدينة، وعلى الجانب الأيمن لهذا البناء المقنطر شنق يهوذا نفسه على شجرة جميز، وكان هذا الباب يعرف باسم باب السمك، لأن من خلاله يمر الطريق من يافا واللد، وشاطىء البحر، الذي اعتادوا على جلب السمك عبره،

وعرف هذا البـاب أيضاً باسم باب التجـار، لأن من خلاله مـرّ الطريق إلى بيت لحم، وحبرون، وغزة، ومصر وإثيوبيا، كما أطلق عليه اسم باب داوود، لأن برج داوود مشرف عليه، وكذلك مدينة داوود مطلة عليه.

وكان البـاب الثاني الذي تلا في التعداد موجـوداً في الجانب نفسه من السور — أي أنه متجـه نحو الغرب — غير أنه كان على مسـافة ضئيلة إلى الشمال من الأول، وقد عـرف باسم الباب القديم،لأنه كان مـوجوداً هناك منذ أيام اليبوسيين، وكان يطلق أيضـاً عليه اسم باب القضاء،لأن أحكام القضـاء كانت تصـدر أمامـه، وبعد إصدار الأحكـام كان يجري تنفيذها خـارج هذا الباب، وخارج هذا البـاب جرى صلب الرب، لأن البـلاط، أو موضع القضـاء، في داخل سـور المدينة القديم، وفي السـور الجديد الذي أحاط بضريح الرب بالسور الجديد، واسم هذا الباب الآن باب القـديس اسطفـان، حيث أن هناك باباً جـديـداً حل محل القـديم، وأطلق عليـه الاسـم نفسـه، وهو يقـود إلى شيلـوه وبيت حـورون، وجبعون.

ويقوم البـاب الثالث إلى الشمال من هذا، ويدعى باسـم باب إفرايم، لأن الطريق إلى جبل إفـرايم يمـر مـن خـلاله، وعند هذا البـاب يلتقي السور الجديـد الذي بنيَ للإحاطة بضريح الرب، لأنه رجم خـارج هذا الباب، وهو يقود إلى: شكيم، والسامرة، والجليل.

ويقوم الباب الرابع إلى الشرق من هذا الباب، وهو موجود عند قرنة المدينة فـوق جدول قـدرون، واسمـه باب الزاوية، ويدعى أيضـاً باسم باب بنيامين، لأن من خـلاله يمر الطريق إلى عناتـا وبيت إيل، والقفار، والمدن الأخرى القائمة في ديار(سبط) بنيامين.

وكان البـاب الخامس قائماً إلى الجنوب مـن هذا الباب، وكـان اسمه باب تلة الروث، أو بـاب الروث، وهو قـائـم فـوق جـدول قـدرون،

والطريق من خلاله يقود إلى الصحراء، ولم يكن هذا الباب كثير الاستخدام، بسبب أن الأماكن التي يقود إليها كانت غير حضارية.

ومثل هذا كان الباب السادس إلى الجنوب من هذا الباب، وكان اسمه باب الضأن، لأن الأغنام التي كانت تستخدم للأضاحي في الهيكل، كانت تساق من خلاله، وذلك بسبب وجود بركة الضأن على مقربة منه، وكان يعرف أيضاً باسم باب الوادي، بسبب أن الطريق الذي يمر من خلاله يقود إلى وادي شعفاط، وضريح العذراء المباركة قائم على بعد رمية حجر عنه، وكان يشرف عليه البرج الذي اسمه برج فاسيلوس، الذي بني من قبل الملك هيرود، وعرف أيضاً باسم باب بئر التنين، لأن في خارجه كان هناك بئر اسمه بئر التنين، ويمضي الانسان عبر هذا الطريق إلى بيت عنيا، وإلى جبل الزيتون، وإلى الأردن.

والباب السابع قائم أيضاً إلى الجنوب من هذا الباب، ويعرف أيضاً باسم الباب الذهبي، وهو قائم فوق جدول قدرون، غير أنه كان موجوداً في ساحة الهيكل، لكن انتبه أن هذا لم يكن باباً للمدينة، بل باباً للهيكل، وعلى كل حال يمر من خلاله طريق يقود بانقطاع قصير من جبل الزيتون على الطرف الأقصى لوادي شعفاط، يمر من خلال قنطرة، وفي داخله كان باب الهيكل الذي عرف باسم الباب الجميل، ومن هذا الباب هناك طريق يقود إلى بيت عنيا، وأريحا والأردن.

وكان الباب الثامن إلى الجنوب من هذا الباب الذي قام فوقه، وهو كان قائماً في الوادي فوق جدول قدرون، فيما بين جبل صهيون، وجبل الهيكل، وكان اسمه باب نبع سلوان، أو باب الماء، لأنه كان يقود إلى نبع وبركة سلوان للاستحمام، ووادي جهنم، وحق الدم، وحديقة الملك، وعلي أن أميل إلى الاعتقاد أن هذا كان باب الروث، وليس الباب المتقدم ذكره، وذلك بسبب وضعه، كما أنني لاأعتقد أنه وجد المزيد من الأبواب في القدس، لأنه من خلال وضع المدينة، لم تكن

هناك حاجة إلى المزيد منهم حول جبل صهيون كله، وإذا كان قد توفرت الحاجة إلى باب، لم يكن من الممكن امتلاك باب هناك،لأن شكل الأرض التي هي شديدة الميلان من كل جانب، تحول دون ذلك.

وكانت الجبال من حول القدس كمايلي:

كان هناك إلى الشرق من المدينة جبل الزيتون، المشرف عليها، ذلك أنه أكبر وأعلى من الجبال الأخرى، الموجودة من حولها، وقد بنيت على قمته كنيسة، فوق المكان الذي صعد منه الرب إلى السماء، وهذا المكان في وسط الكنيسة، وفوقه توجد فتحة، حيث يبقى الفراغ الهوائي الذي من خلاله صعد مفتوحاً أيضاً، وصحيح أن الصخرة التي وقف عليها أثناء صعوده، والتي تحتوي على طبعات قدميه، قد وضعت هناك للذكرى، أيضاً إن هذه الصخرة قد وضعت بقصد إغلاق الباب الشرقي، لكن من دون ملاط، لذلك يمكن للانسان أن يضع يده بسهولة، ويلمس طبعات القدمين، غير أنه يستطيع رؤيتهم، ويوجد على الجهة الجنوبية بيعة متصلة بهذه الكنيسة، حيث دفنت في داخل كهف هناك بيليجيا، التي كانت محظية معروفة، عليها أضفى الرب مراراً نعمة المغفرة، وجعلها مثلاً للمذنبات، ولقد قيل بأن ما من إنسان يعيش مع ذنب عظيم يمكنه أن يمر فيما بين ضريحها وبين السور بجانبها، لكنني لاأعرف مدى صحة هذا، فلقد رأيت كثيرين يمرون من هناك.

ويوجد على هذا الجبل نفسه، على أقل من رمية حجر نحو الجنوب، كنيسة أخرى، اسمها بيت الخبز، فهناك علّم الرب حواريه الصلاة، وكتب صلاة الرب على صخرة هناك.

وجبل العدوان مجاور لجبل الزيتون في الجنوب، وهو مرتفع إلى حد ما، والجبلان منفصلان عن بعضهما بوساطة واد قائم بينهما، وأطلق عليه اسم جبل العدوان بسبب أن سليمان أنشأ هناك هيكلاً لمردوخ

Moloch في مواجهة الهيكل، وبذلك أثار غضب الرب.

وعند سفحه في الجهة الجنوبيـة، يوجد موضع توفت، أو جهنم Ge-hinnon وإلى الجنوب الشرقي من المدينة يقـوم حقل حق الدم، مع جبل مـرتفع جداً فـوقـه، يدعى بالاسم نفسـه، وهو يغطي تقريباً جميع الطريق الممتد في مقابل الجانب الجنوبي من المدينة.

وحقل القصار متصل بهذا الحقل من الجهة الغربية، ويوجد فوقه جبل يساوي بالارتفاع الجبل المتقدم الذكر.

ويوجـد على الجهـة الغـربيـة من المدينـة جبل جيحـون، وهو متصل بحقل القصار، هذا ويمـر بينهما الطريق القادم من باب داوود، ويشرف جبل جيحون هذا على الطـرف الغربي من المدينة، لكن ارتفاعـه يتناقص بالتدريج، حتى يصبح في مقابل الباب القديم ليس كبير الارتفاع.

وعلى كل حال، الأرض باتجاه الغرب والشمال هضبية، وذلك امتداداً حتى ضريح هيـلانة، القائم في مـواجهة باب بنيـامين، الذي يتجه نحـو جدول قدرون ويشرف عليه.

وعبر جدول قدرون، في الجهـة الشمالية من جبل الزيتون، هناك جبل آخر، هو أيضـاً مرتفع جداً مثله مثل جبل الزيتـون، وهو على بعد أربع غلوات عـن القـــدس، وهناك بنى سليمان هيكـلاً لشمش، وهـو وثن المآبيين، وقـد بني عليـه في أيام المكابيين والـرومـان قلعـة، انزعج منهـا سكان القدس وغضبوا كثيراً، وماتزال آثارها هناك حتى هذا اليوم.

وهذه الجبـال جميعاًعلى مقـربة من أسـوار المدينة، لكن ليس كثيراً إلى حد يمكن فيه الهجوم على المدينة منهم بوساطة الآلات الحربية.

وليكن الذيَ قلناه عن وضع القدس، فيـه كفاية، وكذلك عن أبوابها وعن الجبال التي من حـولها، ودعونا نلتفت عـائدين إلى وصف المتبقي

من البلاد.

٩ — وعلى بعد فرسخين نحو الشمال — الغربي للقدس يوجد جبل شيلوه[سيلون]، الذي اسمه الآن جبل القديس صموئيل، وهو أعلى الجبال في الأرض المقدسة، وقمته أعلى من قممهم جميعاً، وهو على بعد أكثر من فرسخ من جبعة شاؤول، وأقام هنا لمدة طويلة تابوه الرب، وخيمة العهد، أي العهد الذي عمله موسى في القفار.

وعلى بعد فرسخ من هناك توجد جبعة[الجيب]، وهي مدينة بنيامين، وهي قائمة على الجبل نفسه، وعلى هذا كان مقدّم الأماكن المرتفعة قد وجد — كما قيل — هناك، وقد أرسل أهل هذه المدينة رسلاً إلى يوشع في الجلجال، وأقاموا سلماً معه بالبراعة، حيث تظاهروا بأنهم كانوا يسكنون في بلاد نائية.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الغرب من القدس، توجد عمواس، حيث سار الرب مع الحواريين كغرباء، وصار معروفاًبالنسبة لهم عن طريق كسر الخبز، واسمها الآن نيكوبولس Nicopolis .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الغرب من القدس، وعند سفح جبل شيلوه، توجد بيت حورون التحتا(بيت عور التحتا)، التي ورد ذكرها في سفر المكابيين(الأول:٧/ ٣٩).

وعلى بعد أربعة فراسخ ونصف الفرسخ إلى الغرب من القدس، وعلى الطريق إلى اللد، توجد قرية بيت جيريم(عرما)، التي كانت إحدى مدن الجبعونيين، حيث أقام التابوه لمدة عشرين سنة، بعدما أخذ إلى بلاد الفلسطينيين، وفي الغرب من قرية جيريم توجد لكش(تل الحسي)، التي كانت أيضاً إحدى مدن الجبعونيين، وقد حوصرت من قبل سنحريب في أيام حزقيال.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب، أو ما يقارب ذلك، من قرية بيت

جيريم، توجد بلدة بيت شمش، التي علينا أن نميزها عن الأخرى الموجودة في ديار سبط نفتالي، والتي عرفت باسم بيت شمش اليهودية[عين شمش]، مع أنها في الحقيقة، قد كانت في ديار سبط دان.

وإلى الحقل العائد لتلك البلدة تولت البقرتان الحلوبان جر العجلة التي كان عليها تابوت الرب، وذلك عندما كان أهالي بيت شمس يحصدون موسم الحنطة في الوادي، وقد مات سبعون ألفاً من الناس، لأنهم رأوا تابوت الرب مكشوفاً.

وعلى عشرة فراسخ من القدس توجد راماثيم زوفيم(الرملة)، التي كانت جزئياً في ديار سبط بنيامين، وجزئياً في ديار سبط إفرايم، وهي قائمة فوق جبل إفرايم، وبناء عليه أطلق هذا الاسم على السهل، ومهما يكن من أمر، هو ليس جبلاً بل سهلاً، وقد عرفت باسم أريمثا -Ar imathea ، فمنها جاء يوسف المستشار الشريف، الذي تولى دفن الرب، وكان النبي صموئيل قد ولد هنا ودفن أيضاً هنا، وهي تعرف في هذه الأيام باسم الرملة.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الغرب من الرملة تقوم مدينةيافا، التي منها ذهب يونه على ظهر سفينة إلى ترشيش، أي إلى جزائر البحر، منذ حضور الرب.

ودون يافا توجد يبنا، التي هي ميناء آخر لليهودية على بعد فرسخين، نحو الجنوب، وقد استولى يهوذا المكابي على هذا الميناء وأحرقه.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من القدس توجد بيت لحم، المدينة التي تشرفت بميلاد داوود الحقيقي، وهي قائمة على جهة يسار الطريق الذي يقود إلى حبرون، إنما على بعد رمية سهم عن الطريق، وقبل هذا، يصل الانسان — على كل حال — إلى ضريح راحيل، على جهة اليمين لطرف الطريق، وهناك في مقابل بيت لحم برج عدر، أو القطعان، حيث

أقام يعقوب لبعض الوقت، وأطعم قطعانه بعد وفاة راحيل، وفي هذا المكان، عندما كان الرعاة أيضاً يحرسون قطيعهم خلال الليل، في ساعة ميلاد المسيح، رأوا الملائكة وسمعوهم وهم يغنون«المجد للرب في الأعالي»، وكانوا يبشرون بميلاد المخلص.

وتقوم بيت لحم فوق جبل، هو مرتفع بعض الشيء، لكنه ضيق، ويمتد من الشرق إلى الغرب، ولها باب على الجانب الغربي، ويوجد هناك على مقربة من الباب البئر الذي تشوق داوود إلى الشرب منه، عندما كان محاصراً هناك.

ويوجد عند النهاية الشرقية للمدينة، تحت الصخرة القائمة قرب سور المدينة، مابدا — تبعاً لعادات تلك البلاد — مكاناً جرى استخدامه بمثابة اسطبل، تمّ نحت معلفه بالصخر، وذلك حسب عادات تلك المناطق، وولد يسوع المسيح، شمس العدالة المشرقة على الدنيا، من أم عذراء، وباختياره لمثل هذا المكان القذر، لأن يلد فيه، ولأن يشرق منه، أظهر بميلاده بأنه سوف يزيل قذارة العالم وظلامه.

وعلى مقربة من تلك الصخرة المتقدمة الذكر، توجد صخرة أكبر، وذلك على بعد أربعة أقدام عنها، كان تحتها المعلف الذي مدد فيه الطفل الحلو، المولود حديثاً، أمام الثور والأتان، وهو ملفوف بأقمشة بالية، هذا ويبدو لي من المؤكد أنه كان هناك في البداية صخرة واحدة، لكن جرى فتح طريق في وسط الصخرة، من خلاله يذهب الانسان إلى سدّة هذه البيعة، ويذهب الانسان من الكنيسة إلى مكان ميلاد الأكثر حلاوة بالنزول بالدرجات، وذلك لأسباب جرى شرحها أعلاه، وهذه البيعة مغطاة بأكملها بأعمال الفسيفساء، ومبلطة بالرخام، وبنيت بسخاء كبير، وفوق المكان الذي ولدت فيه العذراء المباركة، من الممكن تلاوة قداس هناك، فوق لوح من الرخام ممدد هناك، ومن الممكن أن يرى الانسان هناك الصخرة العارية التي ولد عليها المسيح، ومثل هذا ترك

جزء من المعلف، الذي ولد فيه المسيح، غير مغطى، ويجري تقبيل هذين المكانين بتقوى عظيمة من قبل المؤمنين، ومررت في إحدى الليالي بهذين المكانين، وتوليت تقبيل المكان الأول ثم المكان الآخر، وأنا لم أشاهد، أو سمعت أحداً قط يقول بأنه رأى كنيسة أكثر قداسة من هذه في أي مكان في العالم، ويوجد هناك أربعة صفوف من الأعمدة تستحق الاعجاب، ليس فقط بسبب عددها، بل بسبب حجمها الرائع، فضلاً عن هذا، فإن صحن الكنيسة كله الموجود فوق الأعمدة حتى السقف، مزين بأجمل أعمال الفسيفساء[حيث عرض فيها جميع أحداث التاريخ منذ خلق الدنيا حتى قدوم الرب إلى يوم الحساب]، ومثل هذا فإن الكنيسة كلها مبلطة برخام من مختلف الألوان، وهي مزينة برسوم تحتوي جميع أحداث التاريخ منذ خلق الدنيا حتى قدوم الرب يوم الحساب، وقال رجل بأن تكاليف هذه الرسوم لايمكن تقديرها، ويمكن للانسان أن يكتب أشياء تفوق التصور حول عمل هذه الكنيسة، ويجل المسلمون جميع الكنائس المكرسة للعذراء المباركة، لكنهم يجلون هذه الكنيسة فوق الجميع، ورأيت في هذه الكنيسة معجزة تستحق الذكر، فعندما رأى السلطان التزيينات الثمينة جداً، وألواح الرخام وأعمدة الكنيسة، أمر بنزعهم جميعاً وحملهم إلى القاهرة، ذلك أنه رغب ببناء قصر بهم لنفسه، ويالمعجزة، فعندما جاء العمال مع أدواتهم، وكان السلطان نفسه مع آخرين كثر واقفاً هناك يراقب، خرج من الجدار السليم الأصم، الذي لايمكن للإبرة أن تخرقه، ثعبان بحجم هائل، وقام بعض أول لوح وصل إليه، فتحطم اللوح، وفعل الشيء نفسه باللوح الثاني، ثم بالثالث فالرابع، حتى الثلاثة عشر، وقد ألم بالألواح جميعاً الشيء نفسه، واستولت الدهشة على الجميع، فأقلع السلطان نفسه مباشرة وتخلى عما نواه، وهنا اختفى الثعبان، وهكذا بقيت الكنيسة، ومازالت باقية حتى هذا اليوم، كما كانت من قبل، ومع هذا من الممكن رؤية بعض آثار جسد الثعبان حتى هذا اليوم على كل

لوح مرّ عليه، فقد بدت الألواح وكأنها قد أحرقت بالنار، وفوق هذا كله يبدو أنه أمر خارق، كيف تمكن هذا الثعبان من النفاذ من خلال الجدار، الذي هو ناعم وملمع كأنه زجاج.

وعند الباب الشمالي لهذه الكنيسة هناك دير مغلق للرهبان، وذلك حيث يوجد بئر القديس جيروم، وفراشه، وضريحه، وغرفة المخزن العائد للدير، الذي نقرأ بأن القديس جيروم كان رئيسه، ويمكن أن يرى على الجانب الجنوبي للسدة مكاناً — كما قيل — جرى فيه قتل شطر كبير من الأبرياء ودفنهم.

وعلى بعد حوالي رمية حجر إلى الشرق من هذه الكنيسة هناك كنيسة القديستين: باولا، ويوستوخيوم، وهناك أيضاً ضريحهما.

وعلى بعد نصف فرسخ إلى الغرب من بيت لحم توجد قرية اسمها بزق Bezek التي فيها وفرة من النبيذ الفاخر، الذي لايمكن أن تجد أفضل منه في البلاد، والناس في هذه القرية مسيحيين جميعاً، وهم يتولون العناية بكرومهم وبكروم قرى جيرانهم في وادي رفائيم، وذلك حتى جدول أشكول،[العدد:١٣/ ٢٤]، وقد تسلموا من السلطان امتياز السكنى هناك والعناية بهم، ومنهم يدفعون إلى السلطان مبلغاً كبيراً.

وعلى بعد ستة فراسخ شرقي بيت لحم، على شاطىء البحر الميت، يوجد جبل عين الجدي الذي تقدم وصفه أعلاه.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من عين الجدي، توجد هضبة أخيلا Achila، وهي التي عرفت فيما بعد باسم مسعده، وذلك عندما بنى هيرود هناك قلعة لاترام، ويحكى أنه هناك أقام داوود مختبئاً، عندما هرب من أمام شاؤول.

وعلى بعد فرسخين عن بيت لحم، وباتجاه أخيلا، توجد مدينة تقوع، وهي قائمة فوق جبل، وهذه كانت مدينة النبي عاموس، الذي جرى

دفنه هناك أيضاً، وعـاموس هو الذي ضربه آحـازيا ملك القدس، أثناء الليل، ضربة على صدغيه وقتله.

وبجوار هذه المدينة، توجد قفار تقوع.

وفيما بين تقــوع وعين الجدي يمتـد وادي بـريكوت، حيث تحارب يهوشافاط، ملك اليهودية مع الأدوميين، وبني عمون، وهزمهم.

وعلى بعد فرسخ عن هناك، تـوجد قلعة بنيت من قبل هيرود الكبير، واسمهـا هيروديـوم[عند جبل الفـريديـس]، وهي قـائمـة فـوق أرض مرتفعة، وفيها — تبعاً ليوسفيوس — جرى دفن هيرود نفسه.

وعلى خمسـة فـراسـخ إلى الجنوب الشرقي من تقـوع، توجـد مـدينة الزيف[تل الزيـف]، وذلك قـرب قفـار تحمل الاسم نفسـه، فهناك — حسبما قرأنا — أقام داوود مختبئاً.

وبجـوار هذه المدينة، في جهة اليمين، تـوجد قفـار[تل] معين، وذلك حيث يوجــد جبل الكرمل، وأيضـاً حيث سكن نـابال الكرملي، الذي طرد رسل داوود.

وبجــوار قفــار معين، في جهـة الجنـوب، هناك بلاد أمــالك Am-alek ، وفي مقابل لسان للبحر الميت، توجد قادش بارينا(القفار)، التي منها أرسل موسى اثني عشر جاسوساً.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من بيت لحم، على الطريق الذي يقـود إلى حبرون، يوجـد بيت — حكريم Haccerem، وهي قرية قائمة فوق بقعة مرتفعـة، وبجوارها في الجنوب هناك قرية أخرى اسمها رامة(رامـة الخليل،) وهي على درجة عظيمـة من الارتفاع، وقـد وقفت هناك فوق رابيـة عاليـة مع كثير من المرافقين، ورأيت جميع بلاد العـربية حتى جبل سعير، وجميع الأمــاكن الموجــودة من حـول البحــر الميت،

وكـذلك جميع مخابىء داوود، وأيضاً الأردن حتى شطيم(عـدد:٢٥/ ١)، وجبل عبريم، ورأيت باتجاه الغرب جميع شاطىء البحر المتوسط من يافا إلى غزة، وبير السبع، حتى فيـافي شور Shur ، وزيادة على هذا جميع بلاد الفلسطينيين من الرملة مروراً بغث Gath ، وعقرون، وأشدود، ويبنا وعسقـلان، مع جميع السهل الموجـود عند سفـح المنطقـة التليـة لليهودية.

وعلى بعد أكثر من فرسخ مـن رامه، وعلى جهة اليمين، قرب الطريق السلطاني العام الذي يقود إلى حبرون، توجد ممرا، حيث سكن إبراهيم لمدة طويلة، وحيث عندما جلس أمام بيت خيمته إلى جانب بلوطة ممرا، رأى الرجال الثلاثة واقفين إلى جانبـه، وهكذا نجد حسبما قرأنا في سفر التكوين، بأن شجـرة البلوط مـاتزال مـرئية حتى هذا اليـوم، أمـام باب خيمـة إبراهيم، وعلى كل حال، لقـد ماتت الشجـرة القديمـة، ونبع من جذورها شجرة بلوط جديدة.

وعلى بعد نصف فرسخ من بلوطة ممرا، وعلى جهة اليمين، إلى جانب الطريق، تـوجـد حبرون، وهي المدينة القـديمـة، التي عـرفت مـرة باسم«قرية أربعة»، فهناك حكم داوود لمدة سبع سنوات، وكـانت قائمة فـوق يمين جبل مرتفع، وحصين، لكنهـا الآن مـدمرة كليـاً، وخرائبهـا كثيرة، ويبدو أنها كانت مدينة جليلة!.

وعلى بعد رمية سهم جنوبي هذه المدينة، توجد حبرون الجديدة، وقد بنيت فـوق المكان الذي كـان فيـه الكهف المزدوج، المدفـون فيـه: آدم ، وحـواء، وإبراهيم، وسارا، واسحق، ورفقـة ويعقـوب، وليه، وقـد بنى المسلمـون حصناً قوياً جـداً حـول الكهف المزدوج هذا، وفي داخل هذا الحصن هناك الكنيسـة الكاتدرائيـة، ولقـد رأيت في أسـوارها حجـارة مقياس كل منهـا ستة وعشرين، وثمانية وعشرين، وثلاثين قـدماً، وأنا لم أشاهد مكاناً بمثل هذه الحصـانة، قد بني فوق أرض مسطحـة بلا ماء،

ولقد زرت قبور الآباء هناك، وأمضيت ليلة في ذلك المكان.

وعلى بعد رمية سهم إلى الغرب من الكهف المزدوج، يوجد حقل دمشق، الذي من ترابه جرى تشكيل آدم، وفي الحقيقة التربة في هذا الحقل شديدة الحمرة، ومن الممكن قولبتها مثل الشمع، وقد أخذت منها كمية كبيرة معي، ومثل ذلك يفعل الحجاج الآخرون والمسيحيون الذين يزورون هذه الأماكن، فضلاً عن هذا يحمل المسلمون هذه التربة على ظهور الجمال إلى مصر، وأثيوبيا، والهند، وأماكن أخرى، ويبيعونها مقابل توابل ثمينة، ومع هذا يبدو هناك أن كل ما حفر هو مجرد حفرة صغيرة في ذلك المكان، ويقال إنه مع نهاية السنة، قد تكون حفرة كبيرة قد حفرت، نجدها قد امتلأت بشكل إعجازي ثانية، ولقد نسيت أن أبحث عن مصداقية هذا الأمر، والذي يمكنني قوله هو هذا فقط:فعندما كنت هناك، كانت الحفرة حفرة صغيرة، إلى حد أنه كان من الصعب لأربعة رجال الجلوس فيها، ولم تكن أعمق من حد الوصول إلى كتفي، ويقال بأن ما من حيوان يهاجم أو يعتدي على الذي يحمل أياً من هذه التربة، وأنها تحمي الانسان من السقوط، وهذا الوادي القائم في مقابل حبرون خصب جداً وجميل.

وعلى بعد رمية سهم إلى الجنوب من المكان الذي تحفر فيه الأرض، يوجد الموضع الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل، وكذلك على بعد رميتي سهم إلى الغرب من المكان الذي تحفر به الأرض، وعلى رابية على طرف حبرون، هناك كهف في الصخور، هو المكان الذي بكى فيه آدم وحواء على ابنهما هابيل لمدة مائة سنة، ففي الكهف يوجد فراشهما حتى هذا اليوم، ونبع ماء في داخل الكهف، منه كانا يشربان.

وعلى بعد فرسخين إلى الجنوب من حبرون توجد دبير Debir(عند الظاهرية) أو قرية سفر، أي مدينة كتاب، التي استولى عليها عثنئيل بن قناز أخو كالب، فأعطاه عكسة ابنته زوجة(يشوع:١٥/ ١٥ — ١٧).

وعلى بعد فرسخين إلى الشمال من حبرون، توجد نيل[ناحال]إشكول، التي معناها جدول العنقود، أو وادي الدموع، الذي منه جلب الجواسيس الغصن مع عنقود واحد من العنب، وقد حملوه بين اثنين على عصا،[العدد:١٣/ ٢٣].

وعلى بعد نصف فرسخ إلى اليسار من هذا الوادي، يجري الجدول[عين حنينا]، الذي عمّد فيه فيليب الخصي.

وعلى بعد أربعة فراسخ من نيل إشكول، باتجاه القدس، يوجد بيت زكريا[عين كارم]، الذي دخلته العذراء المباركة، حيث حيّت هناك ايزابل، وهناك أيضاً ولد القديس يوحنا المعمدان.

وعلى بعد فرسخين إلى الشمال من هذا البيت توجد بيت نوبة، وهي مدينة الكهنة، ففيها أعطى الكاهن أبيمالك إلى داوود سيف جالوت صاحب غث Gath .

وعلى بعد أكثر من فرسخ عن بيت لحم، على الطريق الذي يقود إلى تقوع، يوجد ضريح القديس كريوث Karioth (القديس شارتون)، راعي دير(خريتون) وذلك مع رهبانه، الذين فارقوا الحياة جميعاً معه، وقد اعتادت حشود من الناس على زيارة هذا المكان.

هنا بداية القسم الأول من الربع الجنوبي

١٠ — ويبدأ القسم الأول من الربع الجنوبي من هنا، مثله في ذلك مثل بقية الأقسام، ونجد أولاً أنه على بعد أربعة فراسخ عن عكا، تأتي مدينة حيفا، وذلك عند سفح جبل الكرمل.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الجنوب من حيفا توجد قلعة الحجاج(عثليت) وهي بأيدي فرسان الداوية، وهي من أكثر الأماكن حصانة بين جميع الأماكن التي استولى عليها الصليبيون، فهي قائمة في

قلب البحر، ومحاطة بأسوار، ودفاعات أخرى مثل السواتر الحصينة والشرافات والأبراج، حتى أن العالم كله قد يعجز عن الاستيلاء عليها.

وعلى بعد فرسخ عن حيفا، على جهة اليسار للطريق إلى عثليت، وفوق جبل الكرمل، يوجد كهف إيليا ومسكن يوشع وبئره، وذلك حيث عاش أبناء الأنبياء، وحيث يعيش الآن الرهبان الكرمليون، فلقد سكنت معهم هناك.

وعلى بعد خمسة فراسخ من قلعة عثليت، توجد قيسارية، التي هي حاضرة فلسطين، والتي كانت فيما مضى مقر رئاسة أساقفة، وكان اسم هذا المكان أولاً دور Dor، وبعد ذلك فرغوس ستراتون Pyrgos Stratonis، وقد أعاد هيرود الكبير عمارتها، وسماها قيسارية، وقد كتب يوسفيوس مطولاً حول أبنيتها ودفاعاتها، ويحدها من جهة الغرب البحر المتوسط، ومن الشرق سباخ لمياه عذبة عميقة، فيها أعداد كبيرة من التماسيح، ووقعت في هذا المكان في خطر عظيم، لكن الرب برحمته أنقذني، وللمدينة وضع دفاعي قوي، لكنها في هذه الأيام مدمرة كلياً، وكان لفيليب وبناته دار هناك، ومثل هذا فيها عمّد بطرس قائد المائة كورنليوس، الذي كان أول أسقف لقيسارية، فضلاً عن هذا، في هذه المدينة حاجج بولص ببراعة وفصاحة عظيمة ضد الخطيب تيرتولوس Tertullus، بحضور الملك أغريبا وفيلكس.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الجنوب من قيسارية، توجد قرية اسمها أرسوف، وقد عرفت من قبل باسم أنتيباتر، صدوراً عن أنتيباتر، والد هيرود الكبير، وكان هذا المكان بأيدي فرسان الاسبتارية، غير أنهم فقدوه، ومع هذا يدفعون سنوياً مبلغ ثمانية وثلاثين ألف دينار ذهبي إلى صاحب أرسوف وإلى ورثته.

وعلى بعد أربعة فراسخ إلى الشرق من أرسوف توجد مكمثة Mic-

methah، التي اسمها الآن قـاقون، وهي قائمة فـوق السهل الموجود عند سفح جبل إفرايم، وذلك ليس بعيـداً عن جبل شارون، وقد شحن المسلمون هذا المكان بالجند لمراقبة قلعة عثليت.

وعلى بعد أربعة فراسخ من هذه تـوجد بلدة سارون التي ورد ذكرها في أعمال الرسل:[٩/ ٣٥].

هذا والمسـافـة فيما بين أرسوف ويـافا هي ثمانيـة فـراسخ، ويافـا هي القائمة على شاطىء البحر، والتي تقدم وصفها أعلاه.

وعلى بعد أربعة فراسخ من يافا توجد غث(قرب يبنا أوابلين)، وهي قائمة ليس بعيداً عن المبحر، وقد كانت إحدى مدن الفلسطينيين.

وعلى بعد فرسخين عن غث توجـد بيتشمش[عين شمس] اليهودية، التي تقدم وصفها.

وعلى بعـد فـرسخين إلى الجنـوب من بيتشمش، وليس بعيـداً عن البحـر، توجـد عكـرون(عكر)، التي هي المدينـة الثـانيـة بين مـدن الفلسطينيين الخمس، وهي الآن قرية صغيرة.

وعلى بعد أربعة فـراسخ إلى الجنوب من عكرون توجد أشدود، التي هي المدينة الثالثة بين مدن الفلسطينيين الخمسة، وهي الآن قرية صغيرة.

وعلى بعـد فرسخين عن يافـا توجـد اللد أو ديوسبولس، التي تقـدم وصفها أعلاه، وعلى بعد فرسخين إلى الشرق من هذه توجد لبنه، التي كـان يوشع قـد استـولى عليهـا[يشـوع:١٢/ ١٥]، والتي حـاصرها سنحريب، وهناك على بعد فرسخ من هنا، على الطريق إلى جبعة، توجد بلدة عـزيقة وبلدة مقيـدة، وهاتان البلدتان استـولى عليهما يوشع بعدمـا فـرج عن أهل جبعة، وهنا المكان الـذي اختبأ فيه الملوك الخمسـة داخل كهف[يشوع:١٠/ ٥ — ٢٥]، وعلى بعد ثلاثة فراسخ إلى الشرق من ها

هنا، وليس بعيداً عن بيت نوبه توجد شويكة اليهودية، وذلك على مقربة من وادي تربنت، وذلك حيث قتل الفتى داوود جالوت صاحب غث بمقلاعه وحجره.

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من بيت نوبه توجد عمواس، التي تعرف الآن باسم نيكوبولس.

وعلى بعد فرسخ ونصف الفرسخ عن عمواس يمضي الانسان عبر وادي رفائيم، مروراً بجانب بيت زكريا، الذي يودعه المسافرون إلى القدس على يسارهم، وعلى فرسخ ونصف الفرسخ من ذلك البيت هناك قلعة حصينة جداً، هي قلعة بيت صورا(صوبا)، القائمة على طرف جبل في مقابل بيت سيخ وبيت لحم.

وعلى بعد ستة فراسخ إلى الجنوب من أشدود توجد عسقلان، التي كانت المدينة الرابعة بين مدن الفلسطينيين، وهي قائمة على شاطىء البحر، على شكل نصف دائرة، وهي محصنة بشكل قوي جداً.

وعلى بعد خمسة فراسخ إلى الجنوب من عسقلان توجد مدينة غزة، على شاطىء البحر، وهي تعرف بشكل عام باسم تل الجزر Gazara ، (تداخل).

وعلى بعد خمسة فراسخ من غزة توجد بئر السبع، التي اسمها الآن جبلين، وهي تشكل حدود اليهودية وأرض الميعاد، وذلك في الجنوب.

وبعد هذه الأجزاء من أرض الميعاد التي وقعت في حصة سبط يهوذا، تأتي القفار الكبيرة، التي تمتد حتى نهر مصر، وأقام بنو إسرائيل في هذه القفار لمدة طويلة، ينتقلون من مكان إلى مكان.

وليكن ما قيل عن البلاد وعن الأماكن التي فيها، فيه كفاية.

طول الأرض المقدسة وعرضها

١١ — دعوني أضيف الآن عرضاً عن طولها وعن عرضها محسوباً وفق أفضل ما أستطيعه.

وعليك أن تعلم، بعدئذ، أن طول الأرض المقدسة يبدأ من سفح جبل لبنان، حيث تقوم قيسارية فيليب، ويمتد جنوباً حتى بير السبع في اليهودية، الموجودة في الجنوب، وطولها وعرضها هو حيث سكنت الأسباط الاثني عشر، وهو ليس عظيماً جداً، وذلك وفقاً لأفضل مالاحظته عندما رأيتها بأم عيني، ومشيت فوقها بقدمي، وقد بدت لي من حيث الاتساع بقدر ماسأبين فيمايلي، إنما لابد من القول أنني مضيت فقط قليلاً فيما وراء الأردن، ولم أعبر خلال بلاد السبطين ونصف السبط، ولهذا لم أقم بذكر ذلك وتبيانه، ويبدو لي أن طولها الذي يمتد من رأس بحر الجليل في الشمال حتى جدول أرنون، حيث تنتهي، هو حوالي سبعة وأربعين فرسخاً، وأما بالنسبة لبلاد الأسباط العشرة على هذا الجانب من الأردن، فقد تولى يوسفيوس وصف طولها وعرضها:

فلقد امتلك سبط يهوذا المنطقة الفوقا، التي تمتد طولياً من مصر إلى القدس، وقد قيل إنها تحتاج إلى سفر اثني عشر يوماً، ويمتد عرضها من البحر الميت حتى البحر المتوسط في الغرب، والمسافة هي خمسة عشر فرسخاً.

وأعطي سبط شمعون شطراً من حصة سبط يهوذا، هو القريب من مصر، فوق جبل عبريم.

وحصل البنيامين على البلاد الواقعة فيما بين الأردن والبحر المتوسط، وطولها خمسة عشر فرسخاً، وعرضها من القدس إلى بيت إيل(بيتين) ما يساوي أربعة فراسخ.

وحصل سبط إفرايم على البلاد الواقعة فيما بين نهر الأردن وجدرة،

وطولها خمسة عشر فرسخاً، وعرضها حتى السهل الكبير، حيث بداية الجليل، ويساوي ذلك ثلاثة عشر فرسخاً.

وامتلك نصف سبط منشا حصته على هذا الطرف من الأردن فيما بين نهر الأردن والبحر المتوسط، وطول هذه الحصة اثني عشر فرسخاً، وعرضها حتى بيسان، ويساوي ذلك خمسة فراسخ.

وحصل سبط زبولون على مابين الكرمل قرب جبل قابيل إلى جنسارث، وطول ذلك تسعة فراسخ، أما عرضها فهو من جبل الطور عبر وادي الكرمل، ويساوي ذلك خمسة فراسخ.

وحصل سبط أشير على جميع البلاد الممتدة من الكرمل إلى صيدا، وهي منطقة طولها عشرين فرسخاً، وعرضها تسعة فراسخ، ويمتد من البحر المتوسط إلى نعسون وكابول.

وحصل سبط نفتالي على الأجزاء الممتدة باتجاه الشرق حتى دمشق والجليل، وطولها عشرة فراسخ، وعرضها من بحر الجليل حتى لبنان، ويساوي ذلك سبعة فراسخ.

وحصل سبط دان على الوادي الممتد نحو غروب الشمس قرب البحر المتوسط، وحدوده هي أشدود في الجنوب ودورا في الشمال، وهذا كان طوله، ولم أذكر قياس عرضه.

وتبعاً للوصف المتقدم أعلاه لجميع الأرض المقدسة على هذا الجانب من الأردن، نجد أن عرضها لم يتجاوز في أي مكان الأربعين فرسخاً، أي فيما بين الأردن والبحر المتوسط، وذلك من الشرق إلى الغرب، أما طولها من الشمال إلى الجنوب فقياسه أقل من تسعين فرسخاً، فهذا كان حسب قياسي وحسابي.

واعرف أنك تمتلك هنا وصفاً صادقاً لجميع البلاد، بطولها وبعرضها،

وبكل ما هو موجود فيها.

وأعتقد أن هذا الوصف عظيم الفائدة بالنسبة لقراءة الأسفار التاريخية، لابل في الحقيقة، لجميع الكتاب المقدس، وذلك إذا ما أريد فهم ذلك كله، وأيضاً من أجل تحديد كل مكان على حده، ومعرفة كل شيء حول جميع الأماكن.

ثمار الأرض المقدسة وحيواناتها

١٢ — وعلينا أن نعرف الآن كيف كانت جميع الأرض المقدسة، وكيف هي في هذا اليوم، ذلك أنها أفضل جميع البلدان، وعلى كل حال يقول بعضهم، ممن لم يقدروها حق قدرها، العكس، فهي خصبة جداً بالنسبة للقمح، الذي ينمو بعد فلاحة قليلة ودونما تعب، وتنتج التربة كثيراً من الأعشاب، وتنبت الشمرة، والمريمية، والسذاب، والورود، في كل مكان من قبل نفسها في السهول.

وينمو القطن فوق بعض الشجيرات، التي يبلغ طولها حتى ركبة الانسان، وهي نبتة سنوية، وأوراقها مثل أوراق الكرمة، لكنها أصغر، وينمو فوقهم جوزات في داخلهن القطن، ويتم جنيهن في أيام عيد القديس ميكائيل(٢٩ — أيلول).

وينمو قصب السكر أيضاً هناك، وهن مثل القصب العادي، لكنهن أكبر، ويوجد في قلبهن تجويف، لكنه مليء بمواد ليفية تشبه ما يجده الانسان في الأخشاب القديمة، وهذه الألياف كثيرة الماء، ويجمع القصب ويشطر طولياً ويقطع إلى قطع تساوي إحداها نصف شبر، ثم تعصر بالمعصرة، وبعد هذا يتم غلي العصير المستخرج منهن في غلايات نحاسية وعندما يصبح سميكاً يجمع في سلال ويصنع على شكل قوالب مستديرة، وعلى الفور يصبح بعد هذا جافاً وقاسياً، وهذه هي الطريقة التي يصنّع بها السكر، وقبل أن يجف يترسب منه سائل لزج اسمه عسل

السكر، وهو لذيذ جداً، وجيد من أجل تحلية أنواع الحلوى، فضلاً عن هذا إنهم يقطعون القصب قطعاً كل منها بطول إصبع الانسان، ويفعلون ذلك لتكون العقدة في وسط كل قطعة، لأنه يوجد في كل قصبة سكر عدداً كبيراً من العقد، ويدفنون هذه القطع في أيام الربيع في أرض رطبة، ومن هذه القطع تنمو القصبات الجديدة، اثنتين من كل قطعة، وذلك من كل جانب من جانبي العقدة، فهذه هي الطريقة التي يزرعوهن بها.

وعليك أن تعرف أن الانسان لايكاد يجد في هذه البلاد: الاجاص، والتفاح، والكرز، مثلما الحال على هذا الطرف من البحر، ويتم جلب بعض الفواكه من دمشق، غير أنها تكون لينة تماماً وطرية، بسبب الحر العظيم عندما تكون الثمار على الأشجار، وبسبب حرارة البلاد.

ومع هذا هناك بعض الفواكه التي تبقى على الأشجار طوال السنة، ويأكل الناس منهن في جميع الفصول السنة، ويجد الاسنان على الأشجار في الوقت نفسه كل من أزهار الثمار، والثمار نصف الناضجة، والناضجة، والناضجة فوق حدها، وعلى هذا قد يمتلكون في بعض الأحيان، أربعة أنواع من الثمار معاً، وهذه الثمار هو مايدعونه باسم البرتقال والليمون، وتفاح آدم، الذي يصنع منه السكان المحليون المخلل ليأكلوه مع الفراخ، والسمك، والأطعمة الأخرى، ويصنعون أطعمة لذيذة المذاق جداً.

وهناك أيضاً فاكهة اسمها الدراق، يصنعون منها في عكا محفوظات فاخرة جداً.

وهناك أيضاً فاكهة أخرى اسمها تفاح الجنة(الموز)، وهي فاكهة رائعة جداً، وهي تنمو مثل عناقيد العنب، فيها حبات كثيرة، وحجم العنقود أحياناً وكبره مثل سلة كبيرة الحجم، وفيه أحياناً ستون حبة أو

أكثر، وهـذه الحبات مستطيلة في شكلها، وطـول واحدتها ستة أصـابع، وهي سميكة مثل بيضـة الدجـاجـة، ولهذه الثمـرة قشرة سميكة مثل غـلاف الفـول، إنما ذات لون أصفـر لطيف، ويرمـي الانسـان القشرة، ويتناول الثمرة ويأكلها، ذلك أن مـذاقها كثير الحلاوة، مثلما زبدة جيدة وعسل من قرص العسل، ولايوجـد في هذه الثمار بذور، بل تؤكل كلياً، وتحتـاج هذه الثمـرة إلى أكثر من سنـة واحدة للنمـو، ولاتعيش الثمـرة سوى وقت قصير — سنتان في أبعد الحدود — ثم تذبل وتجف، ولكن عندما تبـدأ بالذبول تنبع منهـا مباشرة شجرة أخـرى، ويكون ذلك من جـذورها، وتفعل مثلما فعلت الشجـرة الماضيـة، وأوراق هذه الشجـرة طويلة، قد تبلغ طول إنسان، وهي كذلك عراض بحيث يمكن لورقتين أن تغلفا جسم إنسان بشكل كامل.

ويوجد في الأرض المقدسة كثيراً من الكروم، ويمكن أن يكون هناك أكثر، لكن بما أن المسلمين الذين يتملكون البلاد الآن، لايشربون الخمرة — باستثناء بعضهم بشكل سري — لـذلك يقـومـون بتـدمير الكروم، باستثنـاء القليل منهـــا، ربما كـــروم الذين يسكنـون على مقـــربـة من الصليبيين، فهم يزرعـونهم من أجل الفائـدة، وكـروم الأرض المقدسـة جيـدة جداً، ومشهـورة، وبشكل خـاص كروم المناطق حـول بيت لحم، وفي وادي رافـائيم، وهكذا، وذلك من حيث حمل بنو إسرائيل العنقـود على عصا، وهناك كروم جيدة حول صيدا، وعبرها على طول لبنان، وفي طرطوس والمرقب، وعلى طـول شـاطىء البحـــر، وذلك حتى كليكيـا وكبـــدوكيـة، واليـــونان، وهنغـــاريا، هذا ولقـــد رأيت شيئاً رائعـــاً في طرطوس، حيـث أخبرني سكان البـــلاد هناك أنهم يجنون مـن الكرمـــة الواحـدة نفسها ثلاثة مـواسم في السنة الواحـدة، وفق الطريقـة التاليـة: عندمـا يرى في وقت الربيع الذين يتـولون خـدمـة الكروم، أن الداليـة الواحـدة قـد أعطت كميـة من عناقيـد العنب كما تفعل كل داليـة وكل

غصن حسب العـادة، يقـومـون عندها بقطع جميع الأغصـان المتبقية والزائـدة على العناقيد ورميها جـانباً، ويفعلون هـذا في آذار، وفي نيسان تنمـو أغصان جـديدة تحمل عناقيـد من العنب جـديدة، وعندمـا يرون ذلك يقـومون بقطع جميع الأغصـان التي تتعـدى بنموها عناقيـد العنب هذه، ويعطي جـذع الكرمـة في أيار أغصـاناً جـديدة للمرة الثـالثـة مع عناقيد جديدة من العنب، وعلى هذه الصورة يحصلون على ثلاثة مواسم من العنب، كلهـا تنمو مثل بعضهـا، ولكن الذي يزهر في آذار يجمع في آب، والذي أزهر في نيسـان يجمع في أيلـول، ومـا أزهر في أيار يجمع في تشرين أول، وبـذلك يحصلون على ثلاثـة مـــواسم من العنـب في سنة واحدة.

والتين والرمـان، والعسل والزيـت، والأعشـاب والخضـار من جميع الأنواع مثل:اليقطين والخيـار وأنواع أخـرى من الثمار متـوفـرة بكثـرة هناك.

وهناك كثـرة كثيرة من الخنازير المتـوحشـة ،والظبـاء، والأرانب، والحجل، والسلوي، وإنه لشيء ممتع أن تنظر إليهم، وهناك أيضـاً الكثير من الأسود ، والدببة، ومختلف أنواع الوحـوش الضارية، فضلاً عن هذا توجـد أعـداد لاتحصى مـن الجمال، والجمال وحيـدة السنام، والوعـول، والجواميس، وباختصـار يوجـد هناك جميع الأشيـاء الجيدة المتـوفـرة في العـالم، والبـلاد تتـدفق بالحليب والعسـل، غير أن الذين يسكنون هناك لايمكن أن أدعوهم رجالاً شجعان، بل تحتوي البلاد على أسوأ الأنواع وأحطهـا من المذنبين، وبناء عليـه إنـه لأمـر رائع أن تستطيع البـلاد تحملهم.

أنواع الديانات في الأرض المقدسة

١٣ — يسكن في داخل الأرض المقـدسـة أناس من كـل أمـة تحت

السماء، ويتبع كل إنسان عقيدته، وفي الحقيقة لابد أن أذكر، أن قومنا، من اللاتين، هم أسوأ من الشعوب الأخرى كلها في البلاد، وسبب هذا كما أعتقد هو أن أي إنسان اقترف إثماً أو جريمة مثل:اللواطة، والنهب،والسرقة، والزنا، يعبر البحر كعقوبة، أو لخوفه على نفسه، حيث لايتجرأ على البقاء في موطنه، ولهذا يقدم الناس إلى ها هنا من جميع الأصقاع: من ألمانيا، وإيطاليا، وفرنسا، وإنكلترا، واسبانيا، وهنغاريا، ومن جميع أجزاء العالم، ومع هذا فإن كل الذي يفعلونه هو مجرد تغيير أجوائهم المناخية، لكن ليس عقلياتهم، لأنهم بعدما يصبحون هناك وينفقون ما جلبوه معهم، يبات عليهم كسب المال، ولهذا يعودون ثانية إلى دنسهم، ويقترفون آثاماً أسوأ مما اقترفوه من قبل، حيث يتولون إسكان الحجاج الذين هم من شعوبهم في بيوتهم، وإذا لم يعرف هؤلاء الناس كيف يعتنون بأنفسهم، يثقون بهم، فيفقدون كل من مقتنياتهم وشرفهم، ويقومون أيضاً بإنجاب أولاد، يتولون تقليد جرائم آبائهم، وهكذا ينجب الآباء السيئون أبناء أعظم سوءً منهم، ومن هؤلاء ينحدر أحفادهم الأكثر شروراً وفساداً، وهؤلاء يدوسون على الأماكن المقدسة بأقدام ملوثة، ولهذا السبب كان ما وقع، هو أنه لذنوب السكان في البلاد ضد الرب، تعرضت البلاد نفسها، وموضع مخلصنا إلى العار والشنار.

وإلى جانب اللاتين عدد كبير آخر من مختلف الأجناس، من ذلك على سبيل المثال: المسلمون، الذين يؤمنون(بنبوة) محمد(ﷺ) ويطبقون شريعته، وهم يقولون بأن ربنا يسوع المسيح كان أعظم الأنبياء، ويعتقدون بأن حمله جاء بوساطة روح القدس، وأنه ولد من العذراء مريم، غير أنهم ينكرون بأنه قد تألم ودفن، بل اختاروا أن يقولوا بأنه صعد إلى السماء، وأنه يجلس على يمين الآب، لأنهم يعترفون به أنه ابن الرب(كذا)، وهم أيضاً يقولون بأن محمداً(ﷺ) يجلس على يساره، وهم

غير نظيفين كثيراً، ويتخذون عدداً كبيراً من الزوجات بقدر ما يستطيعون إطعامهن، وهم يمارسون ذنوباً غير طبيعية، ولديهم ماخور في كل مدينة، هذا وهم كرماء جداً ومضيافين، وأدباء ولطفاء.

وإلى جانب هؤلاء هناك السريان، والبلاد كلها مليئة بهؤلاء، وهم مسيحيون، لكنهم على غير وئام مع اللاتين، وهم يلبسون بشكل بائس جداً، وبخلاء لايقدمون صدقات، وهم يسكنون بين المسلمين، وفي معظم الأحيان كأنهم خدم لهم، ويرتدون من الملابس مثلما يرتدي المسلمون، ويتميزون عنهم فقط بحزام صوفي.

ومثل هذا نجد أن الاغريق مسيحيين، لكنهم هراطقة منشقين، باستثناء أن عدداً كبيراً منهم قد عادوا إلى طاعة الكنيسة إثر المجمع المسكوني الذي عقده مولانا غريغوري العاشر(مجمع ليون ١٢٧٤)، وفي الكنيسة الاغريقية جميع رجال الدين رهبان، وهم رجال ذوي حياة صارمة جداً وأصحاب فضائل رائعة.

والاغريق أتقياء بشكل كبير ويحترمون في غالب الأحيان رجال الكنيسة لديهم ويبجلونهم، ولقد سمعت واحداً من بطاركتهم يقول بحضوري:«إننا على استعداد لأن نعيش تحت طاعة كنيسة روما، وأن نحترمها، لكنني مندهش إزاء ترتيبنا بالدرجات دون أدنى رجال الدين، مثل رؤساء الأساقفة والأساقفة، فبعض رؤساء الأساقفة والأساقفة يريدون مني وأنا بطريرك، أن أقبل أقدامهم، وأن أكون خادماً لهم، الأمر الذي لاأجد نفسي متوجب عليها القيام بذلك، وعلى كل حال أنا على استعداد للقيام بهذا مع البابا، لكن ليس مع أي إنسان آخر».

وهناك أيضاً الأرمن والجورجيين، والنساطرة، والنوبيين، واليعاقبة، والكلدانيين، والميديين، والفرس، والإثيوبيين، والمصريين، وشعوب أخرى كثيرة، كلها مسيحية، ويوجد من هؤلاء أعداد لاتحصى، ولكل

منهم بطريرك خاص بهم يطيعونه، وأعلن رجال الكنيسة لديهم أنهم على استعداد للانضمام إلى كنيسة روما عن طواعية، وبين هؤلاء نال النساطرة، واليعاقبة أسماءهم من خلال بعض الهراطقة، الذين تقدم وكانوا رؤساءهم، فضلاً عن هذا يوجد في الأرض المقدسة المدينيين، الذين يعرفون في هذه الأيام باسم البدو والتركمان، وقد أوقف هؤلاء أنفسهم على رعاية قطعان الماشية والجمال، التي يمتلكون منها أعداداً كبيرة جداً، ولايمتلك هؤلاء الناس مكاناً دائماً للإقامة، بل حيثما علموا بوجود مراعي يقصدونها وينصبون خيمهم، وهم مقاتلون متفوقون ويحبون الحرب، مع أنهم يستخدمون السيف والرمح في المعركة، ولايستخدمون النشاب، ويقولون إنها دناءة بلا حدود أن تنتزع حياة إنسان بوساطة سهم، وهم شجعان في الحرب، ويرتدون فقط قميصاً أحمر، وفوقه عباءة فضفاضة، ويغطون رؤوسهم بقطع قماش فقط، وسورية كلها مليئة بهم، لكن أكثريتهم يسكنون من حول نهر الأردن، ومن لبنان حتى قفار فاران، لأنه يوجد هناك جبال للأغنام والماعز، وسهول للقطعان وللجمال، والأغنام في هذه المناطق، ولاسيما الكباش كبيرة جداً، ولهم أذناب ذات حجم كبير إلى حد أن ذيلاً واحداً يبلغ من الكبر أنه يحتاج إلى اثنين أو ثلاثة ليستطيعوا أكله.

ومن حول قلعة عرقة، عبر طرابلس، حتى قلعة الحصن، يسكن مسلمون اسمهم الباطنية، ويجاورهم المسلمون الذين يعرفون باسم الحشيشية، الذين يسكنون الجبال القائمة وراء طرطوس على مقربة من قلعة المرقب، وهم يمتلكون عدداً من القلاع والمدن مع أرض خصبة، ويقال إن لديهم أربعين ألف رجل مقاتل، ولديهم مقدم واحد، لايلي منصبه بحق الوراثة، بل بحق الفضائل الشخصية، ويطلق عليه اسم شيخ الجبل، وذلك ليس بسبب سنه، بل بسبب حكمته، ويقال بأن هؤلاء الناس كانوا من أصل فارسي، ولقد مررت خلال جزء من هذه

البلاد، وهم مطيعون إلى درجة الموت، ويقومون بناء على أوامر مقدمهم بقتل أي إنسان مهما كان، ويقولون إنهم بفعلهم ذلك يحصلون على الجنة، حتى وإن قتلوا، قبل أن ينفذوا أوامرهم، ورغبوا قبل عدة سنوات مضت أن يصبحوا مطيعين لكنيسة روما، ومن أجل هذا المقصد أرسلوا سفيراً إلى عكا، الذي حقق بالمباحثات كل ما رغب به، لكنه قتل، وهو على طريق عودته إلى موطنه، من قبل مرافقيه، وكان ذلك قبل دخوله إلى بلاده، مما سبب خسارة للكنيسة ككل، لأن الآخرين عندما رأوا بأن الصليبيين لايمكن الوثوق بهم، انسحبوا على الفور وتراجعوا، والحدود بين بلاد هؤلاء القوم وبلاد الصليبيين معلمة ببعض الأحجار، محفور عليها من جهة الصليبيين صلبان، وعلى جهة الحشيشية خناجر، ولم يستطع أي واحد من السلاطين حتى الآن إخضاعهم، بل إنهم اتخذوا لأنفسهم شرائع وعادات يتبعونها كما يرغبون، وهم مرعبون بالنسبة إلى جميع الأقوام من حولهم، بسبب حدتهم المتناهية العظمة.

ولابد أن نعرف الآن مسألة حقيقية، أن بعض الناس الذين يروق لهم الحديث عما لم يروه قط، قد أعلنوا أن الشرق كله الواقع عبر البحر المتوسط وخلفه، وذلك امتداداً حتى الهند وإثيوبيا يعترفون بالمسيح ويبشرون باسمه، وذلك باستثناء المسلمين فقط، وبعض التركمان الذين يسكنون في كبدوكيا، وبناء عليه أعلن بكل تأكيد، حسبما رأيت أنا شخصياً، وسمعت من آخرين يعرفون،إنه يوجد دوماً مسيحيين في كل مكان ومملكة إلى جانب مصر والعربية، حيث يسكن المسلمون والأتباع الآخرون لمحمد(ﷺ) بشكل رئيسي، ولسوف تجد ثلاثين مسيحياً مقابل مسلم واحد، لكن الحقيقة هي أن جميع المسيحيين وراء البحر هم مشارقة من حيث الأمم، وصحيح أنهم مسيحيين، غير أنهم بوضعهم الحالي غير معتادين كثيراً على استخدام السلاح، وعندما يهاجمون من

قبل المسلمين،أو الأتراك، أو أي شعب آخر مهما كان، يستسلمون لهم، ويشترون السلام ويدفعون الجزية بكل هدوء، ويعين المسلمون والسادة الآخرون نوابهم عليهم، ويجمعون منهم الضرائب، ولهذا راج بين الناس وقيل بأن ممالكهم عائدة إلى المسلمين، مع أن الحقيقة الواقعية هي أن جميع الناس مسيحيين، باستثناء هؤلاء النواب وجباة الضرائب وأسرهم، فهذا مارأيته بنفسي في كليكيا، وفي أرمينيا الصغرى، اللتان الآن تحت حكم التتار، فلقد عشت مدة ثلاثة أسابيع في قصر ملك أرمينيا وكليكيا، وقد كان في بلاطه عدد ضئيل من التتار لكن بقية حاشيته وأهل بيته من المسيحيين، ويصل عدد هؤلاء حتى قرابة المائتين، فلقد اعتدت على رؤيتهم مراراً في الكنيسة، يستمعون إلى القداسات، ويجثون على ركبهم، ويصلون بتقوى، فضلاً عن هذا، كان كلما رآني واحد منهم ومعي مرافقي كان يبدي نحوي احتراماً عظيماً بنزع قبعته والانحناء باحترام لنا، والتسليم، والقيام باحترام لنا لدى اقترابنا، كما أن كثيراً منهم يخافون عندما يعلمون أنه في البلدان فيما وراء البحار، يسكن النساطرة، واليعاقبة، والموارنة، والجورجيين، وطوائف أخرى نالت تسمياتها من هراطقة أدانتهم الكنيسة، ولهذا السبب من المعتقد أن هؤلاء الناس هم هراطقة، ويتبعون آثام الذين نالوا تسمياتهم منهم، وليس هذا صحيحاً بأي شكل من الأشكال، والرب يحرمه:ذلك أنهم أناس بسطاء، أتقياء في حياتهم، مع أنني لاأنكر وجود حمقى كثر بينهم، رائياً أنه حتى كنيسة روما نفسها ليست خلوة من الحمقى، ولنعلم أن جميع الشعوب المتقدمة الذكر، وشعوب أخرى كثيرة، يحتاج أمر الكتابة عنهم إلى وقت طويل، لهم رؤساء أساقفة، وأساقفة، ورعاة ديرة، ورجال دين آخرين، مثلما لدينا نحن أنفسنا، ويدعونهم بالأسماء نفسها، وذلك باستثناء النساطرة، الذين يدعى رئيسهم الديني باسم الجاثليق، فهو البابا الخاص بهم، وقد علمت بشكل مؤكد أن سلطان رعويته يمتد عميقاً في الشرق، أكثر من كل أملاك الكنيسة الغربية،

ويدعى بقية رجال الدين لدى هذه الطائفة باسم رؤساء أساقفة، مثلما الحال في تسمية رجال الدين لدينا.

ويطلق على الرئيس الديني للأرمن والجورجيين، اسم الجاثليق، وقد مكثت معه مدة أربعة عشر يوماً، وهو معه عدد كبير من رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورجال دين آخرين، وبالنسبة لمأكله وملبسه وأسلوب حياته، هو مثالي تماماً، فأنا لم أر قط أي إنسان مثله سواء بين رجال الدين أو العلمانيين، وأعلنت بكل صدق، أن جميع ما يرتديه من ملابس هو بتقديري لايساوي أكثر من خمسة دراهم، مع أنه يمتلك قلعة حصينة جداً، وموارد مالية عظيمة، وكان ثرياً أكثر مما يحسبه أي إنسان، وكان يرتدي فروة جلد غنم خشنة حمراء، ومهلهلة وقذرة جداً، ولها كمين واسعين، وارتدى تحتها قميصاً رمادياً، عتيقاً جداً، وقد اهترأ تقريباً، وارتدى فوق هذا وشاحاً أسود، وعباءة رخيصة خشنة، ولقد رأيت ملك أرمينيا وكليكيا مع نبلائه جالساً بتواضع وباحترام عند قدميه، وغالباً ما اصطحب الملك معه أكبر أبنائه سناً، وكان يستمع بكل تقوى لما كان يتفوه به من كلمات الرب، وقد اعتاد هو وجميع رجال الدين لديه على الصوم جميع أيام الصوم الكبير على الخبز والماء، وهكذا فعل الملك وجميع نبلائه، باستثناء يوم عيد البشارة، فوقتها سمح الجاثليق — بحضوري — لنفسه، بأن يأكل السمك وشرب بعض النبيذ، واستمعت في ذلك اليوم إلى قداس بحضور الجاثليق نفسه، والملك والملكة، وطقوس تقوية إلى أبعد الحدود: وقد ارتدى كهنتهم وأساقفتهم ملابس وأردية مثلنا، وقد استخدموا في قداسهم خبزاً غير مخمر(فطير) وأنشدوا في القداس الرسائل، والأناجيل، والمقدمات، والـ Sanctus ، و Pater Noster و Ag-nus Dei ، وذلك بالكلمات نفسها كما نفعل، إنما بلغاتهم وحروفهم، لأنهم يمتلكون لغة خاصة بهم مع أبجدية أيضاً خاصة بهم، والجاثليق

وجميع رجال الدين الآخرين من ذوي المراتب هم رهبان، وفي جميع بلاد الشرق ما من أحد من أي أمة يمكن أن يكون رجل دين له مرتبته مالم يكن راهباً، وجميع الرهبان يحظون باحترام كبير وتشريف، وليس للقسس والكهنة أية سلطات، وما من أحد يوليهم أدنى تقدير، وليس لديهم من واجبات سوى أداء بعض الخدمات اللاهوتية، فهم ينبهون إلى مرور جميع الساعات الرسمية بالقرع على لوح أو قطعة من الخشب، لأنه لايوجد لديهم نواقيس، وعندما ترسل إشارة حلول الليل، يمضون إلى الدعوة إلى الصلاة الليلية، ويفعلون ذلك لدى مرورهم بالطرقات، وينبهون الناس إلى ذلك، وبعد انقضاء الصلاة الليلية، لايذهبون إلى النوم ثانية، بل يجلسون في الكنيسة ويعلمون الناس حتى الفجر، عندما يرتلون القداس الأول، أوحتى الساعة الثالثة، إذا كان اليوم يوم عيد، وليس لديهم سلطات ومسؤوليات غير هذه، باستثناء ما يعهد به إليهم من قبل الراهبات، وجميع الكهنة متزوجون، وما من أحد يسمح له بقيادة قداس أو عمل تعبدي آخر، ما لم يكن متزوجاً، ولايقيمون قداسات في يوم الاثنين، ولابعد ذلك حتى يوم الجمعة، ويشمل ذلك أيام الأعياد التي تحل في هذه الأيام مهما كانت عظيمة، ولهم الحرية وقتها بالتحادث مع زوجاتهم، إنما في يومي السبت والأحد فيقيمون قداسات بشكل مهيب، وبعد وفاة زوجة أحد الكهنة، عليه أن يكون قانعاً، وأن لايتزوج زوجة ثانية، وإذا ما اقترف إثم الفسوق أو الزنا، لابد له من فقدان كنيسته ومنصبه، ولايمكن تقديم أي تعويض أو غفران لصالحه، وإذا ما اقترفت زوجة الكاهن جريمة الزنا، عليه أن يقنع بذلك، أو أن يفقد منصبه وكنيسته، ولابد أن تفقد زوجته أنفها، وأن يخصى عشيقها، حتى وإن كان رجلاً متزوجاً، وقد نفذ هذا وفعل بحضوري، وعندما يموت أحد الكهنة، على زوجته أن تقنع وتعيش حياة عفة، إنما إذا ما تزوجت ثانية، فينبغي إحراقها وهي حية، لكن إذا ما أصبحت بغية، فما من أذى يمكن أنزاله بها، ولديهم الآن ميثاق

جديد فيما بينهم يقضي بأن يحصل الكاهن — مثل أحد الرسل — على زوجة عذراء، ويتميز الكهنة الأرمن والجورجيين عن العلمانيين بوضع قطعة من الكتان الأبيض يلفونها حول رقابهم وأكتافهم.

وبالنسبة إلى اللصوص الذين يدانون باقتراف سرقات صغيرة، أو باقتراف أعمال شريرة أخرى، أو جرائم أدنى نوعاً، فإنهم يتعرضون للخصي، لكي لاينجبوا أولاداً يقلدون آباءهم في اقتراف الآثام، وهذا هو السبب بالنسبة لي الذي يعلل وجود هذا العدد الهائل من البغايا هناك، لأنه يوجد عدد كبير من الخصيان، وكلهم يعمل في خدمة سيدات نبيلات، وأعتقد أن ملكة أرمينيا كان لديها أكثر من أربعين خصياً، عندما كنت في قصرها، وما من إنسان يتولى زيارتها إلا بإذن خاص من الملك، ويقوم الملك بتسمية واحداً من الخصيان ويعينه لمرافقته ومراقبته، وهذه هي العادة بالنسبة إلى جميع السيدات النبيلات سواء المتزوجات منهن أو الأرامل.

ولدى جميع الملوك والأمراء والنبلاء رغبة عارمة بالاستماع إلى كلمة الرب، ولهذا اسبب يذهب كل يوم بعض الحكماء أو الرهبان في الساعة الثالثة إلى البلاط، أي بلاط كل ملك أوأمير، ويأتي الأمراء أو السادة مباشرة إليهم شخصياً مع أولادهم والأعيان لديهم، ويتم جلب بعض أسفار الكتابات المقدسة، حيث تقرأ بحضورهم باللغة الدارجة، لأنهم لايعُرفون لغة أخرى، أو يتولى الرهبان شرح النص عليهم، وكلما شعر العلمانيون بوجود شك ما أو يقومون بطرح سؤال، يقوم الرهبان بإيضاح الأمور لهم وتوجيههم وفقاً لكلمات القديسين، وقد سألت هؤلاء الرهبان عن أسماء الشخصيات المرجعية، التي يتبعونها، وقد أجابوني بأن مراجعهم الرئيسية المعتمدة هم: جون خريستوم، وغريغوري الناصري، وسيريل الاسكندري، وكل من رجال الدين والعلمانيين أتقياء جداً في الكنيسة، ولايفعلون هناك شيئاً سوى الصلاة

أو الانشـاد، أو أي شيء آخر عليهم أن يعملوه هناك، ولم أشهـد هناك قط إنساناً يضحك أو يتصرف شخصياً بشكل غير لائق في الكنيسة.

ويتم أداء القـداس في كنيستهم بشكل تقــوي ، ويوضع الكأس على الجهـة اليسرى من المذبح في مكان أعــدّ خصيصـاً له في الجدار، ولدى صـلاة التقـدمـة يرفعهـا الخوري، المرتدي لثيــاب حـريرية ثمينة، بكل احترام فـوق رأسـه، ويكون هناك معـه شماس يحمل مبخـرة، كما يكون هناك قندلفتين يحملان الشمـوع ويسيران أمامـه، ويدورون حول خلف المذبح وذلك باتجاه الطرف اليمين منه، ويعد هذا يأخذها الأسقف بكل احترام ويقـدمهـا، وذلك مثلما يفعل الكهنة لدينا، ويقف إثنان بشمـوع مضـاءة خلف الكاهن أثناء قــراءة قـانون القـداس، وإلى جـانبهما اثنان بمبـاخـر، وهما يرتديان ثوبـان كهنوتيـان طويلان، ويقف شماسـان على طرفي اليمين واليسار للمذبح، ويصليـان بتقوى وقد ضم كل منهما يديه واتجه بوجهـه نحو جسـد المسيح، وهو يغني بصوت شجي وتقي مـؤثر ويردد مـا يغنيـه مع الآخـر، وفي الحقيقــة إنه لأمـر هو الأكثـر تقـوى وقداسة أن تشاهده وتسمعه.

ولقد رأيت كثيراً من الممارسات العامـة الرائجة كثيراً في تلك البلاد، بين العلمانيين، وبين رجـال الدين، والرهبان، التي من النادر الأخـذ بها أو ممارستها في بلادنا.

ولقـد سافـرت عبر هذه البلاد كلهـا حتى كبدوكيـا وسلوقيا، وكـان ذلك بوساطة البحر، وأبحرت من هناك إلى قبرص، وتجولت عبر الجزء الأعظم من تلك المنطقـة، ومن هناك أبحـرت إلى سـورية، وقـدمت إلى صــور، وبعــد مضي عـدة أيـام أبحـرت مـن هناك على طول ســاحل فلسطين، ومـررت بحيفـا، وجبل الكرمل، ودورا، وقيسـارية فلسطين، وأنتباتر، ويافا، وعكرون، وأشـدود، وعسقلان، وغزة، وجميع الصحراء الرملية حتى مصبات نهر النيل، ومن هناك مضيت إلى دمياط، التي كان

اسمهـا القديم ممفيس، وهذه هي بلاد جـوشن Goshen ، حيث أقام بنو إسرائيـل في القـــديم، وخـــدمـــوا الفـــرعـــون في عمل الملاط واللبن[الخروج:١/ ١٤]، وفي هذه البلاد جرى فيما بعد رجم إرميا.

مبارك هو الرب، والقديس متى، آمين.